محمد المخزنجي

الموت يضحك

الموت يضحك

ما أحب الاشارة إليه، لو كان ذلك وارداً، هو أن هذه النوعية من القص ليست مرحلة من مراحل تطورى فى الكتابة باتجاه القصة القصيرة جداً أو القصة القصيدة أو الأقصوصة الموجزة التى أشتهرت بها واشتهرت بى ، إلى حد ما ، ولكن هذه القصص الأميل إلى الطول هى طبقة من طبقات الصوت القصصى الذى لا ينبغى أن يكون أحادى النبرة، فى أعتقادى، بل ينبغى أن يكون قادراً على الانتقال بين النغمات إن تطلب الأمر ذلك .

المؤلف

الطبعة الأولى
١٩٨٨
حقوق الطبع محفوظة

دار الفكر
للدراسات
والنشر والتوزيع
القاهرة - باريس

مدينة نصر - المنطقة السادسة

الغلاف
الرسوم
الاخراج
للفنان : محمود الهندى

محمد المخزنجى

الموت يضحك

الفئـــران

أخذ الرجل العجوز يدفع العربة الصغيرة أمامه ، والمرأة المتهالكة تلحق به ، فى يدها ورقة يخفق فيها الهواء .

كانا قادمين من جهة عنابر النساء ، فى السكة بين الأشجار حيث كانت ظلال الغروب الممتدة تكاد أن تكسو القناة المشجر المترامى كله ، والسكة ، تتخللها بعض بقع الشمس الغاربة

المتسللة بوهن من بين الجذوع والأغصان . فكانت الكتلة البيضاء فوق العربة تضىء وتعتم ، وتضىء وتعتم ، تبعا لوقوع هذه الكتلة المتحركة فى مساحة الظل أو بقع الضوء .

لم يكن يُسمع فى هذه السكينة المترامية غير أصوات نسائم الغروب وهى تتخلل الأغصان ، وصوت العصافير المختبئة فى الشجر ، وصرير عجلتى العربة الصغيرة ، وحشرجة أنفاس المرأة المُتعبَة والرجل العجوز ، وصوتاهما :

- مدى ياوليه يا كركوبة

- اسم الله عليك يا راجل يا عجوز

- والله نفسى انقطع النهارده . تالت مرة أروح وآجى .

- بيقولوا الحر هو السبب .

- مكتوب كدا فى الورق ؟

وعصفت هبة هواء ، فارتجفت الورقة أمام وجه المرأة وهى تحاول القراءة ، وارتفع الهسيس فيما كانت الأغصان تتمايل بشدة وترتعش الأوراق . وتساقطت من شجر التوت - وهما يمران تحته - بعض الثمار البيضاء ، والحمراء القرمزية ، ففرشت الملاءة التى تغطى سطح العربة .

- استنى لما نشيله يا راجل .

- التوت الابيض حلو . كل منه .

- والله مالى نفس .

توقف الرجل عن دفع العربة ، فاستقرت فى وضع أفقى مرتكزة على عجلتيها ذات الاطارين السوداوين فى الخلف والقدمين الحديديتين فى الأمام . وراحت المرأة لاهثة تتقدم وترفع حبات التوت عن الملاءة ، ثم ترمى بها بين جذوع الاشجار على جانبى السكة .

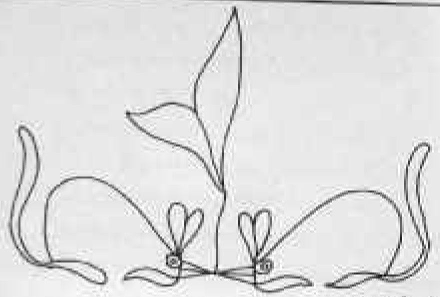

وأستأنفا المسير .

فيما كانا يمران تحت شجر « البانسيانا » وقد أزهر فكأنه مظلات ببهجة الحُمرة وسط دُكنة أشجار الكافور والجزوارين التى تصنع سياجا أمام نوافذ عنابر الرجال الواردين حديثا ، كانت وجوه الرجال والأيادى المضطربة تظهر من وراء القضبان التى تصفح النوافذ ، وتتعالى الاصوات فى جلبة وتشوش :

- هات شاى .

- شاى يا عم . شاى .

- سجاير وشاى . وشاى ياعم .

كانت زهور البانسيانا الشهية الكبيرة ، الحمراء بتوهج ، لا تكف عن السقوط طوال الوقت ، فتفرش هذا الجزء من السكة باللون الاحمر ، وتقع فوق العربة فتبدو الملاءة البيضاء وكأنها نُقشت فجأة ببهجة الزهور الحمراء .

ثم اختفت الجلبه عندما اجتاز الرجل والمرأة تلك المسافة تحت أشجار « البانسيان » ، وعاد صوتاهما إلى الأتضاح :

ـ والله ياسِتّى أنا نفسى فى كباية شاى من الصبح

ـ وأنا نفسى مسدودة من ساعتها .

ـ دا يعنى صعبانه عليكى قوى .

ـ عشرين سنه معاشراها .

توقف الرجل عن دفع العربة ، وتوقفت المرأة وراءه ، إذ قابلهما سرب من النساء القدامى حاملات صُرر القش ـ من ورق الشجر المتساقط والعشب الجاف ـ فوق رؤوسهن .

كانت الصُّرر كبيرة صنعت من البطاطين القديمة ، يحملنها إلى « الفرن » ، وتقودهن واحدة من النزيلات القدامى المتحسنات قليلاً . تغيض الصُّرر فوق رؤوسهن فتُخفى وجوههن والعيون ، وهن يتحركن مهرولات ، ينؤن بحملهن ، ولا يبصرن الا مواطىء الأقدام .

اقتربن من العربة فأحدثن جلبة صغيرة من الهمهمات ، وبدون كدجاجات فزعات اضطربن اضطرابا خفيفا . لكنهن أفسحن الطريق عندما دفعتهن قائدتهن ، الدائمة التلفت ، بضربات عصا صغيرة خفيفة نحو جذوع الأشجار .

ومرت العربة فيما رحن يستأنفن المسير . مهرولات فى صمت وعنت ، تقودهن الملتفتة أبدا . وعاد الرجل والمرأة الى حديثهما وهما يتقدمان . .

ـ عشرين سنه ؟ ياه . لازم أهلها ما كانوش عايزينها .

ـ سمعت ان أهلها هم السبب .

ـ لازم ورث . أرض والّلا فلوس .

ـ يابنه كان حب والّلا هو جواز .

ـ ضحك عليها وسابها ؟ والّلا اتجوز عليها ؟

كان الرجال القدامى ، الهادئون ، الذين سُمح لهم بالخروج إلى الفناء ، يظهرون هنا وهناك تحت الأشجار ، هائمين ، يبدون بخطوات متحدثين إلى أطيافهم الغامضة .

كانوا يهيمون ببطء ، أو بهرولة ، فى الجلاليب القصيرة التى تُظهر أرساغهم النحيلة وأقدامهم العارية . أذرعهم لا تكاد تهتز فى جنوبهم بينما رقابهم المتصلبة تميل إلى الامام والرؤوس مطأطئة . جفت أجسامهم ، وشحبت ساكنة الوجوه .

كانت تلفت انتباههم الشتيت كتلة البياض المارة فى السكة بين الأشجار ، فتستدير وجوههم المتوجسة ، ببطء . . يسكنون للحظة ناظرين بعيونهم الخائفة ، ثم ينصرفون إلى عوالمهم التى لا تبين لأحد سواهم . وكانت المرأة تجهد نفسها بالتذكر . .

ـ لا . يابنى أهلها ما والفلوش والّلا هو أهله .

ـ لازم كان فقير .

ـ يظهر كده : والّلا هو كان من مِلّة غير مِلّتها .

ـ هى ايه ؟

ـ وأنا ايش عرفنى ؟

ـ عشرين سنه معاها يا وليه ومش عارفه ؟

ـ واحنا مالنا آهو كلهم بييجوا لنا غلابه زى بعضهم . وربنا هو اللى يعلم بهم

ـ قوليلى اسمها ايه وأنا أعرف لك .

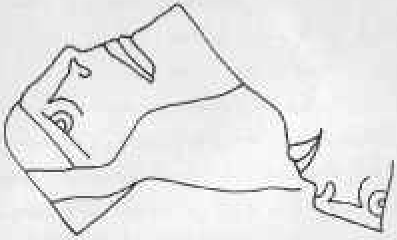

- اسمها ليلى .

- فيها ليلى كده وفيها كده . قولى اسم ابوها وجدها وانا أعرف لك .

- وأنا ايش عرفنى . احنا بنناديهم باسمهم وخلاص .

- اقرى فى الورقة تلاقيه مكتوب .

وقرأت المرأة وهما يمضيان ، فيما كان يتمهل الرجل .

- ليلى . اسمها . . ليلى ابراهيم يوسف .

- يرووه . شوفى دراعها .

وأوقف الرجل العربة التى كانت ، أصلا ، نقالة من نقالات الاسعاف رُكّب لها عجلتين .

واتجهت المرأة الى جانب العربة الأيمن فيما كانت الشمس وهى تميل قبيل الغروب تفرد الظلال فتغمر السكة بالقتامة .

مدت المرأة يدها وقد سرت ارتعاشة خفيفة فى وجهها العجوز ، وأخرجت ذراعا من تحت الملاءة البيضاء ، ذراعاً

شاحبة ونحيفة . تأملتها المرأة بتعاسة وحزن ، وعادت تدفعها تحت الغطاء ، فيما كان الرجل يهز رأسه ويتمتم :

- جايز . . جايز يكون فى الشمال .

تحرك الرجل نحو يسار العربة ، وأخرج الذراع اليسرى من تحت الملاءة ، ولم يجد آية علامة ، فأعاد الذراع الى مكانها ، واستأنفا السير ، بصعوبة ، وسط ركام من ورق الشجر المتساقط على مدى سنين كثيرة مضت .

كانا قد بلغا نهاية السكة حيث اختفت الاصوات ، وانقطع ظهور الاشجار ، بينما كانت الظلال تأتى من بعيد وتغمر المكان حتى السور الذى كانت تقع فى زاوية منه الحجرة المبنية بالأحجار ، ذات النوافذ العالية الصغيرة ، والباب القديم الضخم .

توقفا مجهدين أمام الباب ، وأخذا يتنفسان بعمق ، وبرغبة فى الراحة . وفجأة قطبت المرأة مذعورة وهى تسأل الرجل :

- سامع ؟ فيه صوت جوه .

وضع الرجل يُمناه حول أذنه ومال على الباب يتسمع ، ثم أنزل يده واستوى متنهداً يقول :

- آه . دى الفيران . الفيران .

- فيران ؟

سألته وهى تنظر إلى الكيان المُوارى بالملاءة البيضاء ، لا تكاد تتم عنه بينه لفرط ما هو ضئيل وخاسف فى الحمالة القديمة . ثم استطردت تسأل بحسرة وألم :

ـ وصاحبيتهم ؟

ـ يووه . عفشا فيهم . . سم ومصايد ولا فيه فايده .

مال الرجل على الباب يعالجه بمفتاح كبير . فانفتح الباب بصرير صدىء . واندفع جسم رمادى ـ ككرة صغيرة ـ خارجا . ثم اختفى فى الحشائش النابتة بكثافة حول الحجرة المهجورة .

صرخت المرأة . خائفة . وراح الرجل يطمئنها :

ـ إيه ؟ دا فار . فار صغير

كانت المرأة هى التى تدفع العربة هذه المرة فيما كان الرجل يوجهها من داخل الحجرة وهو يهيّىء المكان .

كانت الحجرة المعتمة راكدة الهواء . تفوح من أرجائها رائحة عطنة .

كان هناك دولاب صدىء فى الركن وضعت المرأة فى أحد أدراجه شهادة الوفاة ، بينما كانت المناضد الرخامية تقوم وسط الحجرة ولصق الجدران حيث نُحّيت الجثتان اللتان لم يأت لاستلامهما أحد منذ الصباح .

اتجه الرجل نحو طرف العربة بينما كانت المرأة تقف عند الطرف المقابل .

انحنت المرأة تكشف الملاءة عن الرأس لترفع من الكتفين فظهر الوجه المستطيل الشاحب وانسدل الشعر ، ناعما ومرنا برغم البياض الضارب فيه .

ـ خلقتها جميلة . وشعرها زى الحورية .

ـ كانت تنسى ما تنسى شعرها . ولما كان يزيد عليها الدور .

تعمل فيونكتين زى الصغيرين وتطلع عايزه تخرج عالباب العمومى . تقول انه جاى لها . وانه بيحب شعرها بفيونكتين .

ـ وكان بيحبلها صحيح ؟

ـ دا ميت من قبل ما تدخل هنا .

ـ موتة ربنا ؟

ـ بيقولو الظاهر إنه اتقتل .

ـ أهلها قتلوه ؟

ـ تقريبا كدا والّلا هو أهله

ـ ارفعى كويس من تحت الباط .

كان الرجل يرفع من عند القدمين ، والمرأة من تحت الابطين ، نحو المنضدة الرخامية فى وسط الحجرة ، والملاءة البيضاء تنحسر ـ منزلقة ـ عن الجسد الشاحب .

قالت المرأة لاهثة وهى ترفع :

ـ نبقى نغطيها قبل ما نخرج لاجل سانهم ما تطولهاش

ورد الرجل مُقطّع الأنفاس :

ـ ياما غطينا وما بينفعش .

كانا عجوزين ، ضعيفين ، ما كادا يسجيان الجسد على المنضدة الرخامية حتى وقفا يلهثان تعبا ، تتردد أنفاسهما بحفيف وحشرجة واهنة تطغى عليها أصوات الفئران التى كانت تتحرك ، مختبئة فى الفجوات ، والشقوق ، وظلمة الأركان .

أمام بوابات القمح

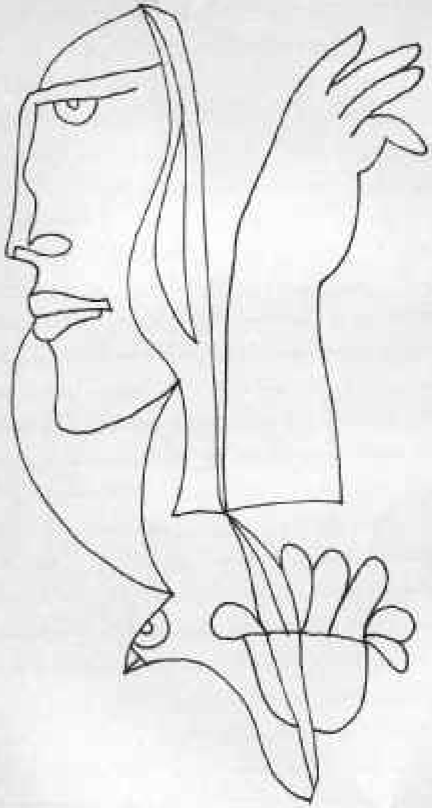

« لازم .. لازم .. قبل زمزم لازم »

هكذا كنا حانقين ، والمسافة بين قول الصغار والفعل يمكن أن تترامى بحرا بلا آخر أو تدنو عرض قمحه . والشمس تصعد .. تفيض وتملأ الدنيا فتنبع من كل مكان ، من جوف البيوت الرمادية ، من أحواش السلالم الرطبة المعتمة ، من عند أركان الحوارى الظليلة ، وتتلاقى إذ تحتشد فى شارع « الكامب » المفضى إلى شونة الغلال ..

يأخذنا الشارع ، يأخذنا ونحن ندرج على أرضه الترابية مسرعين .. كل يحمل قلة ماء ممتلئة وطبقا فارغا وكيسا خاليا من قماش ، وأملا فى العودة بحصاد وفير من قمح تم حصاده منذ حين .

كانت العربات تمر بنا مثقلة بأحمالها من زكائب القمح ، تستثير التراب حولنا والعذو في أقدامنا ، وهي تسبقنا الى « البوابات » حيث نسعى . . تُرمق عيوننا امتلاء الزكائب بشوق ، وتخايلنا الحبات المنمنمة الاكتناز ذات الشق الحنون الغور في تجانس هذه السمرة الدافئة . .

- لو الواحد ياخد زكيبة بحالها . . يعطل ييجي هنا تاني
- دا الزكيبة الواحدة فيها قمح يكفي سنه . . أكثر من سنه
- كام يوم ولا مليت نص طبق حتى
- زمزم هي السبب
- آه زمزم . . هي السبب

كنا نتجمع هناك حيث يصب شارع الكاشف ، أمام البوابات الهائلة التي تفتح على ساحة الشونة حيث تتوقف العربات لتُنزل أحمالها . نصنع قوسا مشوقا الى القمح ، ونحن نحتمل قلل الماء للسقيا . .

ما يكاد واحد من الحمالين أو رجال الملاحظة يعلن عن عطشه حتى يتفكك في لحظة قوسنا ونحن نجري ونتزاحم ، نتدافع مصطخبين وكل منا يُعلي قُلته ويعلن عنها بالصياح :

- خد مني أنا - أنا - لا أنا - أنا يا عم - والنبي أنا - ربنا يخليك أنا - أنا .

ويهنأ صاحب القلة التي تمتد إليها يد العطشان ، إذ بعدها يُروى العطش يمتلئ طبق صاحب القلة بالقمح مما تسلل من خروم

الزكائب . نحسد الفائز في كل مرة ونغبطه إلى حين ، لكننا لا نلبث حتى ننسى ونحن نتزاحم ، نتدافع ، ونصطخب متنافسين على الفوز بطبق القمح من جديد .

لقد دُفعنا دفعاً من قبل أمهاتنا لنفعل هذا الشيء في البداية ، ثم اصبح هذا الأمر لعبة يومية وعملاً في آن ، وكان التنافس يتأجج ، وكل منا يفتش ليفرد قلته بميزة وزواق . .

كانت هناك : قلة الولد الأبيض « البريش » - من حارة جنب الجامع ، حمراء بأذنين وقد ألبسها بُرنسا غطاؤها منه فيه . . كانت قلة نظيفة ومضحكة كطفل أحمر بقبعة بيضاء . وكانت هناك قلة الولد ذي القُصة « الكوكو » - من بيت المأذون ، وقد غطاها بشاش أبيض نظيف ورائحة ماء الورد تتضوع منها . وكانت هناك قلة بنت النجار وبها عود النعناع .

كان التنافس متأججا حتى أن عشرات القلل التي كنا نعليها - لحظة يطلب أحدهم الماء - لم يكن بينها واحدة تشبه غيرها . ولم تكن هناك قلة لا يصيبها الدور ، اذ تمتلئ الأطباق بالقمح واحداً من وراء واحد ، والقمح نفرغه من الأطباق في الأكياس القماش التي نحمل ، وما تكاد الشمس تتوسط السماء ملتهبة والظل تدوسه الأقدام حتى نرغب في العودة قانعين بما حصدنا - وهو كثير ، وتكون القلل خفيفة فرغ ماؤها بينما ثقلت على أكتافنا الأكياس . كان الأمر هكذا ، ثم اكتشفنا ببطء أننا نعود بالقلل ثقيلة بينما تخف فوق أكتافنا الأكياس .

ثم لم تعد أطباقنا تستقبل حبة قمح واحدة ، ونحن فى هذا اليوم كنا حانقين . .

- زمزم هى السبب
- يشربوا من قلتها لوحدها
- تقولشى فيها مية سلسبيل

أدركنا أن أحدهم ما يكاد يُعلن عن عطشه ونحن تتدافع حتى تظهر ، تفاجئنا دائما بظهورها ، وهى التى كانت - منذ قريب - واحدة منا ، صغيرة مثلنا ، ومثلنا تتدافع وتعلى قُلتها وتعلن عنها بالصياح .
أصبحت تفاجئنا بظهورها من وراء . . تتقدم بغير سرعة ولا تتكبد حتى أن ترفع قلتها مثلنا ، فى مشيتها شىء غامض لا نعرف كنهه ، ثم أنها تأخذ فى إكتساحنا . . .
تشق تزاحمنا كسكين حادة تقطع فى جبن هش ، تعبرنا ولداً وراء ولد ، وبنتاً من بعد أخرى ، ولا يشربون إلا من قلتها ثم يكلمونها بكلام ونحن فى دهشة ، وطبقها يمتلىء بالقمح مرة بعد مرة ، ونعود بقللنا ثقيلة فى كل يوم ، وفى كل يوم نعود بالأكياس خفيفة أو فارغة .

- يارب تموت حالا زمزم
- تموتها أحسن
- آه نقتلها
وكنا نتضاغط فى قوسنا المشوق أمام البوابات حيث القمح ،

نجرب حظنا من جديد وقد أبدلنا الحنق بالتمنى . . أعلنوا عن عطشهم ، فجرينا ، تزاحمنا ، تدافعنا إليهم ونحن نُعلى القلل مدللين عليها بالصياح كما اعتدنا ، بل كنا نزيد :

- أنا يا عم - قلتى فيها مية ورد يا عم - قلتى بنعناع - قلتى زى الفل - قلتى ليها بُرنس يا عم - أنا . . لكنها جاءت من وراء ظهورنا ، فأخفضنا أصواتنا والقلل التى أعليناها ، شقت تزاحمنا بيسر وتقدمت الى الرجل العطشان . . سقته حتى ارتوى ، وامتلأ طبقها بالقمح ، وعاد يمتلىء ، ولم يكف عن الامتلاء !
كانت تكتسنا .

نعود فى الظهيرة ، والشمس الحامية ، والأرض الملتهبة تلسع أقدامنا . . ثقيلة هى القلل ، والغيظ يمتزج فى داخلنا بالحسد والحيرة . . ما الذى تتميز به قلتها عن كل قللنا ، هل لأنها طالت قليلا أصبحت ظاهرة لهم أكثر منا ، وهى لا تتجشم حتى عناء التصايح أو التزاحم مثلنا . . ؟ !

- لازم نقتلها .
نقتلها ؟ لا تعود الى مفاجئتنا بالظهور ؟ لا تعود الى اكتساحنا ؟ نعود بقللنا خفيفة كما مضى ، وبالأكياس يثقلها القمح ؟

نقـ . تل . ها . برقت أمامنا الكلمة ، لُقيا قاصية ودانية فى الأرض الداكنة تحت الشمس المتوهجة . . تلتمع ، وتغرى البصر . . تلتمع ، فتعمى البصيرة . ولم يكن هناك شىء يكف هذا الالتماع المخايل الا ستر الليل .

اذن سنقتل زمزم ، فى الظلمة .
واتفقنا .

بالليل

كنا كثيرين حتى أننا ملأنا بير السلم الرطب الذى تختبىء فيه ، تغرقنا الظلمة ، ونسمع أخفت الأصوات دون أن نرى .. سنقتل زمزم ، كان هذا ما تجمعنا عليه .. نقتلها بأى شىء ؟ أحضر أحدنا عصا غليظة ، وآخر كان يمسك بسكين ، وكنا جميعا سنكبلها بأيدينا ونكتم أنفاسها . كنا خائفين ـ فقط ـ أن نُكتشف ، فنُعرف ، ونُضرب ضربا شديداً هذا كل ما فى الامر .. أما أن تموت زمزم فقد كان هذا حسنا ونحن اعتزمناه ونريده ، لكى تكف عن الظهور من ورائنا وأخذ كل القمح . سمعنا صوت أبيها يناديها ، ثم ترامى الينا صوتها ، وكنا نضطرب . ستخرج زمزم اذن . سنثب عليها . لا بل ننتظر حتى تعود . لماذا . بل الآن . كنا نضطرب . انها خارجة لتشترى لأبيها السجائر . كانت تهبط ، ووقع أقدامها على الدرج القليل يأتى خلال الظلمة والجدران ، ستظهر أمامنا وهى متجهة إلى باب البيت . قبض الذى معه العصا على عصاته ، وتحسس صاحب السكين نصالها ، وكنا جميعاً نرتعش كحيوان واحد خائف أو مبترد ، لم ندر . ولما لاح شبحها فى ستارة الظلمة أمامنا ، وثبنا ..

وقعنا عليها جميعا ، وهى تحاول التملص ، تمكنا من فمها فلم تصرخ ، وانتبهنا الى أنفسنا فوقها .. كان ارتعاشنا يذوب فيما يشبه النوم . لقد كانت أيادينا تتحول هكذا إلى خفة عليها ، ورفق أوما يشبه ذلك بها . ثم أزاحتنا . وهى التى أفلت منا فمها لم تصرخ .. وهى التى لم نعد نكبلها ظلت منطرحة كما طرحناها على الأرض لم تتحرك . كانت تتنفس بعمق . وكنا نبتعد عنها فيما يشبه حركة طيران بطيئة فى حلم غريب . كانت الدنيا تدوم كالدوار .

الذى كان على ركبتيه يكممها أخذ يرجع عنها وهو لا يزال على ركبتيه جاثيا . والذى ارتمى بطوله فوق طولها تدحرج مبتعداً عنها كحجر أملس يدفعه الهواء ولا أحد .
وكان صوت السكين وهى تسقط من يد صاحبها مكتوما كالخزى . والعصا الغليظة كأنما تحيت .. وضعت على الأرض باتئاد حتى كاد الا يصدر عنها صوت . ثم أخذنا نتفرق صامتين . صمتا كالظلمة التى تركناها تسيل .. تسيل .. أمامنا .. وراءنا .. خلفنا .. حولنا .. وفى كل مكان .
ونحن بكل ذلك ، كنا مأخوذين .

فى الصبح التالى

الشمس كانت هى الشمس . البيوت . الأحواش . أركان الأزقة . كل الأشياء كانت هى هى لم تتغير ، والاحتشاد فى شارع

الكامب يحدث ككل يوم ، لكننا نحن - أصحاب حادثة الليلة القائتة - وقد شدنا إلى بعضنا البعض خيط غامض به ضعف وبه قوة .. لم نتفرق ، وكنا حريصين ألا نتفرق فى هذا الصباح .. نمشى معاً ، نحمل قللنا ذات القلل ، وأطباقنا ذات الأطباق ، نتجه الى بوابات القمح دون أن نتبادل كلمة . ونحس باغتراب فى هذا الاحتشاد . هل كانت قاماتنا قد ضالت فجأة عنها فى الصبح الفائت ، فكنا نخشى لو نبدو هكذا أغراباً عن بقية العيال .. لقد وقفنا هناك ككل يوم امام البوابات حول عربات القمح ، ونحن نتوقع أن تظهر زمزم فجأة من ورائنا ..

ولقد كنا فى شوق الى ظهورها .. نعم .. شوق وخجل ، وقد كانت ماكثة لا تزال هناك ..

هناك فى تلك الظلمة التى تسيل ، رغم أن الشمس كانت فوقنا تلهب الرؤوس .. كانت لا تزال هناك منطرحة كما طرحناها .. وحيث طرحناها .. فيها ليل وفيها شروق .. فيها لين وفيها شدة .. فيها نزق وفيها اضطرار .. فيها طراوة ، فيها ملاسة ، فيها رحابة ، فيها حنو ، فيها دفء ، وفيها دعوة غامضة إلى عالم غريب لم نعرفه من قبل .

كنا ندرك هكذا أننا كنا فوقها وكأننا عليها .. كائنات صغيرة تافهة تتحرك على كيان هائل لم نعرف له رأساً من قدم .

الذى منا فاجأ بيديه ذلك التكور اللدن لهذين الشيئين فوق الصدر ، كان لايزال مُشنجاً راحتيه وأصابعه فى وضع المفاجأة تلك بين الإمساك والترك .

والذى لامس فمه - دون أن يقصد - تلك السخونة المُنْدَاة ، كان يحس بالندى والسخونة على فمه لايزال . والذى تزلّقت أصابعه وارتبكت - وقد كان بذلك مذهولاً - فى حوض من ورد وشوك ، كان مرتجف الأصابع لايزال من غرابة الوخز ونعومة الاوراق فى آن .

وظهرت ...

ظهرت تفاجئنا ونحن فى شوق الى المفاجأة . نظرت إلينا نظرة لم نر مثلها من قبل . ثم عبرتنا وراحت تكنس الأولاد والبنات بقلتها إلى الرجال العطاش .

وعندما كان طبقها يمتلىء بالقمح ، تبينا أننا لم نعد نحسدها ، ولم نعد عليها حانقين . لقد كنا نبصرها ونبصر رؤوس الأولاد والبنات من فوق ، وشعرنا بخجل من هذه القلل التى كنا نحمل ، ولم نتصايح ولم نزاحم .

فكرنا لو يمكننا أن نملأ طبقها بالقمح ، وكنا نرنو الى الرجال العطاش .. لو نغدو معهم .

حيث الناس والبيوت

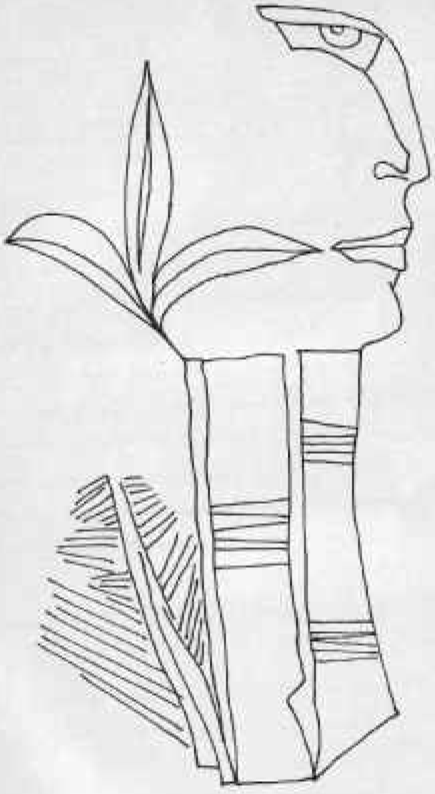

آه يا اخوة . .

آه من عسر الكلام وعصيانه مين يزدحم الطفل بالمعنى وتضن عليه العبارة . .
تضن ، فيروح . . يروح يثريها بيدين ترسمان حيرة فى الهواء ، وثغر يختلج بما يوالى . .
يقول الطفل : « كده » ! كده التى تعنى هكذا ، هكذا التى تشير الى كل ما يزحم الروح ويضغط .

وأنا ـ الآن ـ يا إخوة اذ اتكلم عن الأمر مازال يعصينى الكلام . . وهاكم يدى تتحرك ووجهى يختلج . . .

كان هذا الأنين المروع ، المذبوح . . كانت تطلقه أمى عذابا وهى ممدودة هكذا ، قليلة الجسم نحيفة هكذا . . على السرير الذى كان هكذا تعبا بأربعة (عواميد) صدئت أساورها الصفراء النحاس ، وتهشمت أو ضاعت عساكر هاماتها الصفراء النحاس كذلك .

كنت سلخة - من بدنها الذى كان ضاويا ومهانا ، وفهمت مرارة قبل أوان المرارة : أن الموت ، هذا الطائر الجارح الأسود الخطاف البشع الذى لا قلب له . . يريد أن يخطف منى أمى التى كنت أحبها بحجم الدنيا التى كنت أعرفها كلها . . كنت أحبها وهى تناديني :

« يا تن عيق » وكنت بالمثل أناديها : « يا تن عيق » .

وكنت أحترق - هكذا - ملوعا بالبكاء وأنا أكتم حيرتى فى نفسى :

كيف . . كيف . . كيف لا تخطف منى « تن عيق » ؟ !

ماذا كنت أفعل يا أخوة ، وقد كنت - هكذا - صغيرا ؟ !

كانت فوق السرير تستجدى بأنينها الموجع شيئا بعيدا بعيدا لم أكن أبدا أراه يجىء ، وكن حول سريرها وقد لبسن السواد حلقة كئيبة من نسوة هالكات يبعثن فى تراحمهن الأسيان الكامد حولها بنذير قابض ، وقد كنت أرى ذيول جلابيبهن السوداء تظهر تحت داير السرير المتسخ المثقب وتتحرك متهدلة ببطء . . كنت أرى هذا التهدل البطىء لخرق السواد وأنا قابع تحت سريره « تن

سى ، مقرفص أبكى بلا صوت حتى لا أُكتشف ، فقد كانت لتدهدة الموشاة بالشفقة يومها تبيتى واكرهها . . هكذا كرهها ، والتصق ببرودة الحائط . . أفكر عندما أتعب من البكاء . . أفكر لو أنى أكف عن اتيان الأفعال الحرام . . لو أنى أكف ، فربما الرحمن الذى على عرش السماء السابعة يقعد يسامحنى ، يسامحنى ولا يأخذ « تن عيق » بذنبى . . يمسح عنها الداء ، فتعود كما كانت . . حلوة هكذا . . تأخذنى معها الى كل مكان ، وتضمنى فأحس بطراوة حضنها الودود ، وتهدهدنى . . والغنوات تهدهد :

« حاده حدتو
من الله طلبتو
طلبتو واعطانى
أعطانى حاده »

و

« حاده واقف ع الملاحة
ماسك فى ايده التفاحه
والبنات وراه رماحه »

و

« نام يا تن عيق نام
وأنا أجيب لك جوز حمام »
غنوات ، وغنوات ،

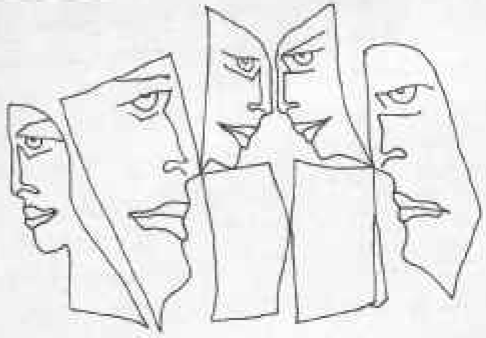

وعثرات أخر . . إلى وإن كنت قد نسيت كلامها ، فإن لا أنسى إيقاعها المدمث بالتربيت أبدا .

وفكرت هكذا ، وهكذا قررت وأنا أعاهد الرحمن :

- أن أحب كل الطعام ولا أعاف منه شيئا أو عليه أغضب .

- ألا أصيد العصافير وألا أحبسها .

- أن أحمل اللقم المتربة التى أجدها فى الطريق وأقبلها ثم أضعها للنمل عند سفول الحيطان .

- ألا أجرى وراء القطط الجربة وألا أضربها .

- ألا ألتفت أو أشرد فى وقفة الصلاة يوم الجمعة .

وكنت أمسح دموعى بعد العهد مع الرحمن ، وأخرج متسللا من بين أرجل النسوة الضامرات ، وأعبر تحت تهدل الحرق السوداء ، وكل رجاء . . .

كانت « نن عينى » نش لا تزال ، أنينا أصبح قابضا للروح ، وكان رجائى قد خاب رغم أنى وفيت ولم أخن ، وكان بكائى تحت سريرها هذه المرة يحرق بالعذاب اكثر حتى أفلت نشيجى رغم حرصى - ألا يخرج منى صوت يشى بى ، وفكرت أن خيبة رجائى كانت لكثرة ما ارتكبت من ذنوب - هكذا - لا أعرف كيف . وطلبت من رب السموات أن يعذبنى - حتى تخلص ذنوبى كلها ، ولا يخيب لى الرجاء فى أن تخلص « نن عينى » من علتها .

أخذت انتظر أن تعمى عين من عيونى ، أو يتخلع ، ولا يعود ، طرف من أطرافى ، وطال انتظارى فقررت أن أعذب نفسى بنفسى حتى يرضى الرحمن - هكذا - عنى . .

عريت زراعى ورحت أعض ، أعض ساعدى . . أعض عضا قاسيا أقسى ما استطعت . . حتى تركت ساعدى دوائر دوائر . . . دوائر مزرقة تحمل أثر قوسى الأسنان المغروزة وتبتل بسيل اللعاب وفيض الدموع . .

كانت « نن عينى » قد كفت عن الأنين لأن غيبوبة أدركتها ولم أكن اسمع منها الا صوت الانفاس المضطربة العميقة الغور ، وران صمت غريب موجع . . تصورت أن فيه - هكذا - يحلق طائر الموت الذى رأيته حدأة كبيرة بعيون حمر ومنقار أسود . . أسود كبير ومتقوس ، ينتهى بطرف حاد كطرف السكين . . كان طائر الموت أسود كسواد جلابيب النسوة اللائى جلسن حول سريرها صامتات خافضات الرؤوس . . وخفت أن يشرعن

فجأة في الصراخ ، وكنت خائفا من طائر الموت أن يفعل ـ هكذا ـ ويكون في الفعل دم اذ كنت أدرك ـ الآن ـ أنه طائر مجرم وغلاب . . وهرعت واجف القلب مطاطئا بعد أن مسحت بيدي وجهي محاولا الا أدرك أقراني من عيال الشارع يكتشفون أن عيوني كانت مبتلة ، وهناك . . هناك . . حيث لم تكن تقوم البيوت ولا يمشي الناس أخذت أبذل أقصى ما أستطيع . .

أن ألعب مع « تن عيني » حيث بدا غير ممكن أن تلعب هي معي ولم أكن قد رأيت شيئا يميت نفسه الا العصافير التي تصاد وتحبس ، فتحبس أنفاسها ، ولا تأكل حتى تموت .

ورحت مثلها أفعل : أخرج جائعا واذهب الى أقاصي الغيطان . . مختبياً أقعد على حافة المصرف النائي . . أبكي ثم أشرئب بعنقي حابسا النفس . . أحبس النفس حتى أتوتر فألتوي وأنا أكتم دفقة الضغط التي تندفع الى وجهي عبر ضيق الصدر . . أزفر نادما أني لم أحتمل ، وأشهق مقررا أن أعاود الكرة . أعود أحبس النفس وأنادي مكتوما طائر الموت . . أناديه نداء يكاد يفجرني ويبعثر . .

أناديه أن يأتي . . يأتي يأتي ويلقط بمنقاره روحي التي أحسها تصعد الى الحلق ، وأرجوه أرجوه أرجوه أن يفعل هكذا بغير أن يكون في الفعل دم . . أناديه أناديه أناديه وأرجوه أرجوه أرجوه أرجوه ولا أستطيـ ـيـ ـيـ ـيـ ـع ، فأزفر طاردا ما أكتم ، وأشهق ثم انفجر بكاءً مرا . . وأعاند مكررا المحاولة فأجد نفسي أعد ؟ ! . .

أعد ـ بغير قصد ـ حابساً الى رقم كم استطعت أن أحبس أنفاسي ! وعندما أزفر لم أشهق أجدني لا أبكي ! . وأحذت أكرر ، وأزيد العد في كل مرة . ثم وجدتني ناسياً ، واتجه اذ تسوقني قدماي الى حيث الناس والبيوت . . أذيع بين أقراني لعبة جديدة ، وأطلب من ينازلني وأنا لم أرتب لذلك !

« من يقدر يحبس نفسه أكثر مني ؟ »
« من يقدر يحبس نفسه أكثر مني ؟ » .

وأصبحت بطل هذه اللعبة !

بطل هذه اللعبة أصبحت ، وأصبحت أنوعها وأنا ألعبها : مرة بأن أضع يدي على فمي وأنفي ، ومرة بأن يضع أي من عيال الشارع يده على فمي وأنفي حتى يوقنوا كوني لا أكذب ، وحتى يتأكدوا من كوني ـ فعلا ـ لا أكذب طلبت منهم أن يحضروا وعاء ممتلئا بماء . . . أغطس فيه رأسي ، وليعدوا حتى يتأكدوا أني أحبس أنفاسي ـ بالفعل ـ طويلا ، طويلا قبل أن أخرج رأسي من الماء . . كان هذا يتطلب وقتا حتى يتحقق . ثم ان تحققه مرة لم يكن كافيا للتأكيد . وكان التكرار يتطلب وقتا آخر ، ثم أني كنت أتعلل بضرورة أن انتظر بين الناس والبيوت حتى يخف شعري من البلل . فهل كان يصح يا أخوة أن أعود الى البيت مبتلا . . كان هذا لا يصح . كنت أقول لنفسي ذلك . وكان للماء الذي أغطس فيه رأسي لذاذة منعشة . . أعرف الآن ـ يا أخوة ـ كيف لا يعصيني الكلام في التعبير عنها ، وبالذات

لحظة أخرج بوجهى من الماء وأملأ صدرى بنسائم الدنيا كلها .. كلها - يا إخوة - قبل أن اكرر اللعبة فى أماكن أخرى حيث الناس والبيوت . لابد بين الناس والبيوت !

نعم يا إخـوة .

المخالسة

فتحت له ، فذكر اسمى ، وذكر اسمه ، وعرفنى بنفسه :

« شرطى سرى من مديرية الأمن » ، فاندهشت مضطربا ، ومكثت مرتبكا للحظات فى حلق الباب دون أن أدعوه للدخول : « تفضل . تفضل » . فأنا رجل مسالم ، لا أذكر أننى دخلت قسما للبوليس مرة ، وأكاد أن أكون مخلصا حتى النخاع لكل حرف فى كلمات الحكم العظيمة من مثل : « دع ما لقيصر ، لقيصر . ودع ما لله ، لله » ، و « لا تتدخل فيما لا يعنيك فتسمع ـ على الأقل ـ ما لا يرضيك » ؛ ولولا أننى أخاف افزاع طفل الحبيبين الوديعين واثارة استغراب الآخرين لعلقت فى كل أرجاء البيت والعيادة ومكتبى فى المستشفى صورا مكررة للقرود الثلاثة القاعدين القرفصاء : يغطى أولهم عينيه ويسد الثانى أذنيه

ويكمم الثالث فمه ، يدعو الى : « لا أرى ، لا أسمع ، ولا أتكلم » ، ايثارا للسلامة . ثم انى انسان لا أعداء له ، بل ولا ـ حتى ـ أصدقاء ، بالمعنى العميق لكلمتى : العداء ، والصداقة . وقولى المأثور الأثير هو : « أحب حبيك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما ، وابغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيك يوما ما » . لا أغوص أبدا فى أى شئ ، ولا أحب الغوص لانى اعتقد أن أى غواص مهما احترف معرض يوما ما للغرق . حتى فى عملى ، لا أحب الغوص ، ولا أومن فى جدواه . ولقد اثبت سجل عملى نجاحا باهرا لتطبيقى وجهة النظر التى أبداها البروفيسير « جا . واليس » فى مرجعه المختصر المفيد والتى أقدسها ، تقول : « بما أن السبب المنشئ للمرض النفسى ـ بالضبط ، بالضبط ـ غير معروف ، فعليك بالأعراض » ، وفقط .

ومع ذلك ، كنت مرعوبا من هذا التيه المفزع الذى رمانى فيه المخبر الجالس فى صالون بيتى ، يشرب الشاى ، وأنا ألح عليه كى يقول لى لماذا أنا مطلوب للأمن ؟ وهو ، يهز رأسه اشارة عدم المعرفة ، ويرتشف الشاى بصوت مرتفع ، أضحك طفلى ، ولم تضحك له زوجتى التى وقفت شاحبة الى جوارى . . شاحبة ، خائفة ، ومع ذلك لم تفقد حساسية المرأة . . هذا الذكاء الانثوى الذى يلتقط برقيق الأنامل أدق الخيوط وأهمها فى أعقد نسيج كان ، فبعد أن قدمت اليه « البمبونيره » ليأخذ واحدة من الشيكولاته ـ لاكها فى فمه بسرعة ـ أصرت أن يأخذ المزيد ،

وسحبته : ـ « عندك أولاد » ـ « خمسة » ، فضربت الخمسة فى أربعة ولفت فى ثوان قليلة عشرين قطعة من الشيكولاته الكبيرة بالبندق : « للاولاد » ، فانشرح وتململ ، وأطلق من فمه حمامة طمأنينتنا : « لا تقلقى يا هانم ، الدكتور مطلوب لسؤال عن زميل له مقبوض عليه للاشتباه » .

ماذا فعلت يا حسين يامنصورى ؟ ظل السؤال يحاصرنى وأنا أرتدى ملابسى لاخرج ، وأنا أهبط سلم بيتى ، وأنا فى الطريق الى مديرية الأمن . وحسين المنصورى طيف يطالعنى فى كل خطوة ، بوجهه المدهوش الذى يشبه وجه صبى ويوحى بوجه شيخ فى ذات اللحظة ، يسبح حولى بجسمه الصغير وأراه شاردا رغم قلق العينين المغرورقتين دائما . قلت لك يا حسين يا منصورى مالنا نحن وما للقلق عندما رحت تنبش وتحفر فى مواضيع متعبة : مرة عن علاقة الاحباط بالتطرف ، ومرة عن اكتئاب النساء وسفر الرجال ، ومرة عن جنون الاطفال فى غياب الأمهات .

وقلت لك ستروح فى داهية عندما اثرت قضية « ضرورة أن يكون للطب النفسى رأى فى كل المشاكل الاجتماعية وفى الصلاحية النفسية لشخصيات الكبار » . وقلت لك لا تعرض نفسك للحرج والخطر عندما تلبثك العناد أن تذهب بعيدا فى « بحث جوانب موضوع حالات التحول الهستيرى المتكررة وسط المتقبات » اذ كن يجئن بالعمى ، والخرس ، والغيبوبة ، وفقد الاحساس ، والشلل ـ الهيستيرى جميعا . تظل تناقشهن طويلا

بعد أن يشفين ، وهن يقاومن . تتكلم عن ابن كثير وابن حزم والألبانى ومن لا أعرف أسماءهم ، تقرأ عليهن آيات وتقول « لا نص فى آية الأحزاب ولا فى آية النور على ضرب النقاب » ، وتقول : هناك أحاديث كثيرة أقرت السفور ولم تطلب من المرأة لا تغطية عين ولا عينين . وإراك بعد أن يخرجن متوترا تروح وتجيء ، وتردد : اختيار أم انقهار ؟ انصياع أم اقتناع . ثم تبادرنى وأنا لا شأن لى بذلك : لماذا يخترن الأعسر الأعسر والأعنت الأعنت والأغلظ الأغلظ . تسألنى عماذا أفسر تناقض التركيبة النفسية الهشة للهستيريات مع ما يبدين من قسوة فى التعصب . وعندما حاولت أن أكفك بالهذر عن الإيغال قائلا : سل نفسك ! وجدتك تستسلم بسهولة أدهشتنى وأنت تقول : بأنك كالواقف على حافة الجرف يرى ما وراءه من بسطة الأرض إلى استدار ، ويبصر حقيقة الهوة إن أطل على أسفل . فأمسكت أنا . وظلت تشغلك حالات المنقبات الهيستيريات فتغرق فى البحث عما تسميه « سيكلوجية التخفى » . وصرت أضيق بأسئلتك الحيرى : ما هى سيكلوجية انسان يراقب العالم خلال ثقبين وهو مختف ؟ ما هى سيكلوجية انسان يظل يرى العالم من وراء منظار وهو يعلم أن أحدا لا يراه ؟ ما هى سيكلوجية من ينظر خلال عين الباب السحرية طوال الوقت وهو عارف أن أحدا لا ينتبه إليه ؟ وعندما عرفت أنك ابلغت تطلب اجازة ، وانقطعت عن المجيء ، وانقطعت عنى أخبارك ، منذ شهرين ، ذهبت الى شقتك الصغيرة ولفت نظرى التماع العين السحرية فى

دُكنة خشب الباب ، فهل كنت هناك طوال الوقت وأنا أضرب الجرس وأطرق دون مجيب ؟ ! أم ماذا ؟ ! وما شأنى أنا ؟ !

وما ذنبى يا حسين يا منصورى لتضعنى فى هذا القلق والخوف بزايلنى . أدخل المبنى الرهيب .. ردهات جهمة وعساكر متيبسون أمام الأبواب ، ومخبرون يروحون ويجيئون بسرعة وملامحهم توحى بالتكتم الأصم . ووقفت برعبى من خطر غامض ثم أدخلونى أمام رهبة السلطة وبريق النور السور والنجوم المخيف ، لكن جنابه دعانى إلى الجلوس بلطف زائد « تفضل يا دكتور » ، وسألنى عما أشرب ، فشكرته متعجبا بالشاه ، وكدت أهب واقفا لتقبيله .

قال جنابه لى إنهم ضبطوه متخفيا فى زى امرأة منقبة يتجول فى الشوارع بين الناس ، وقال لى إنهم عندما قبضوا عليه وازاحوا عن وجهه النقاب كان يخفى وجهه بيديه مضطربا كطفل خجلان أو كمن يبهره النور بعد ظلمة ، وظل يخفى وجهه ولم يتكلم . وعندما فتشوا فى جيب بنطلونه الرجالى الذى ابقاه تحت الجلباب النسائى الضاق وجدوا بطاقته وكرنيه النقابة وبطاقة عضوية جمعية « الطب والنفس » ، وقال لى أنهم عندما تحروا عنه عرفوا أنه وحيد وليس له أقارب أو أصدقاء بالمدينة ، ويعمل معى ، ومن ثم لم يجدوا غيرى يعرفه . وقال لى إنهم آسفون لازعاجى وقد اضطروا للاستعانة بى لعله يتكلم ، ونهض وقادنى خلال ردهات كان يعبرها فيتنحى كل شيء بالتحية العسكرية ثم نزلنا درجا يفضى الى بدروم معتم ودهاليز مضاءة بمصابيح كابية ،

وصلصلت بوابة حديدية تفتح فرأيت صفا من الغرف الموصدة أبوابها السوداء ، وجاء عساكر يحمل أحدهم كشافا يثير في العتمة ، وفتحوا بابا ودخلوا ودخلت ونادى جنابه بصوت رهيب : « أظن ستتكلم يا حسين يا منصوري » ، وضربوا بضوء الكشاف في الركن ، ولولا أن أخبرت سلفا بأنني ذاهب إليه لما عرفته ، فقد كان في الركن قاعدا القرفصاء مخبيا على نفسه ببطانية رمادية يطل من شق بين طرفيها . كان واضحا انهم يطلبون مني محادثته فانحنيت عليه أناديه : « دكتور حسين يا دكتور حسين » ، وكنت أزيح عن وجهه أطراف البطانية فيعيدها بشكل آلي ، « حسين . . حسين » ، لكن وجهه المحايد الشاحب لم يرد النداء ، ثم إنه انسحب داخلا في مكمنه الرمادي ، وانا أستوى واقفا ، لا أكرر المحاولة .

ما بال هذا الأنين

لم يكن هذا مجرد نباح ، فقد كان شيئا بشعا عندما فزعت من نومى . مرة أخرى يفلت الحلم ويطير . لليوم العاشر منذ خروجى والأحلام تنفلت من نومى وتطير . وقلت : لعله كلب غريب دخل وسط كلاب المنطقة فتجمعوا عليه ينبحون .

لكن ، عندما بدأ الخبط يصل الى الباب ، كنت أدخل فى مشاعر تلك اللحظة .. أدخل فى خليط الذهول والحضور الباهر .. الوميض ، واسراع النبض ، والدوار الذى لا يكتمل . وقلت : لقد جاءوا اذن ، وكان هذا هو الوقت : بعد منتصف الليل ، وقبل الفجر .

قلت : لقد دخلوا ، اذ سمعت الباب يفتح . وسمعت أصوات الأقدام الكثيرة فى بئر السلم . وأخذت أصغى وأنا أقول : سأجدهم فوق رأسى ، وسأشعر بالمرارة والاحباط وأنا أنهض .. سأرتعش من البرد ومن الشعور باليأس وافتقاد الأمان ، وسأرتبك وأنا أحاول اخفاء ارتعاشى .

عادت الأصوات تخرج من بئر السلم . كان النباح ، النباح ، النباح ، ثم انى كنت أتبين صوتا يشبه صوت انسان مرتاع تحول الى بكاء .. واستنفد نفسه فصار أنينا ، وكانت أصوات الكلاب من حوله تنطفىء صوتا وراء صوت .

قلت : لماذا هموا بالصعود ثم تراجعوا ؟ لابد أن الكلاب كانت تستعر بالنباح عندما رأت سياراتهم الساكنة المطفأة الانوار تتسلل . وعندما هبطوا من السيارات كان النباح يشتد ، ولابد أنهم ـ حيث توجد معهم دائما بنادق وهراوات .. راحوا يضربون الكلاب التى تجمعت عليهم بكعوب البنادق ورؤوس الهراوات ، ضربا مكتوما لتكف ، فلا أستيقظ ، ولا يستيقظ الناس ، ومن ثم أباغت . لكن ، ما هذا الأنين ؟

أخذت أصغى لليل . لقد انقطع النباح كله أو يكاد . لا صوت الا ذلك الأنين الغريب . ولم تكن هناك حركة .. حركة الاقدام التى كان ينبغى أن اسمعها وهى ترط الدرج ، متتابعة متزاحمة ، لأفاجأ بهم فوق رأسى . ومكثت أصغى .

قمت أخيرا ، خرجت من سريرى ورحت أعبر باب الحجرة ، والردهة ، وأفتح باب الشقة ، وأهبط عارى

القدمين . أوقدت نور السلم ، وكان صوت الأنين يتضح شيئا فشيئا كلما هبطت درجة فدرجة . ثم رأيت الكلبين المذبوحين !

نعم : مذبوحين ، لا أستطيع تعبيرا أقل من ذلك . لقد كان هذا الجزء النازف من جسديهما ممضوغا حتى البطن وأعلى الأفخاذ ، وكان دمهما يلطخ الارض وعتبة الباب والأجزاء السفل من الحيطان . كانا يئنان وجسداهما فى ارتجاف متواصل . ثم انهما التفتا معا الى وجودى ، ولم يتحركا ، بل أخذا يتطلعان نحوى فى ضراعة .

لابد أن الألم كان يعصف بجسديهما المتصلين ، وكانا مذهولين حتى اللحظة ، وكنت أستطيع الآن أن أغمض عينى وأتخيل .. عندما التقيا فى الليل ، والتصقا ، وكانت الكلاب تنبح من كل مكان ، فراحا فى عجزهما الذليل يندفعان للاحتماء بمداخل البيوت ، وكان بيتنا أقرب ، ومن شدة الحاحهما على النجاة أخذا يدفعان الباب معا ، فينفتح ويدخلان ، يلحق بهما النباح وتطالهما الأنياب ، ويتم ذبحهما على هذا النحو فترجع عنهما الكلاب الى حين . وقد كنت أبصرها ـ تلك الكلاب ـ وهى ما تزال تترصد لهما خارج الباب فى عتم الليل .

كانا يرتجفان مزيدا ، ويصدران صوتا كالنحيب وهما يسددان الى نظراتهما المتضرعة ، فملت مذهولا أحاول أن أساعدهما وقد استكانا لى . ولما كانت يدى تتلمس هذا الجزء من جسديهما ، اقشعر جلدى ، اذ كان اللحم (المفرى) المدمم يتساقط بمجرد اللمس ، فتراجعت بظهر مقصوم ، يثقلنى صدر مبهظ ،

وتقعدنى روح مهدرة ، فأتهاوى مقرفصا على أول درجات السلم .

ما الذى جعلنى أتذكر حسرات عمرى كلها ، وحتى المقهور ، والأحلام التى تبددت ولم تخلف غير الحسرة ؟ أشعر بوطأة الوحشة فى هذا الليل ، وأشمل المذبوحين بنظرى ، نزهة ، ثم أخى ، وجهى بين ركبتى .. أحن للبكاء ، لكن البكاء يستعصى .. ثم إنهما راحا يتأوهان .. بصوت لسانى خالص كانا يتأوهان ، تأوها أحسه يحتلنى ويتسلل عبر عظامى الى النخاع ويصعد ، فلا أحتمل المزيد .

وأرانى فى لحظة ذاهلة كأنى أنخطف .. أقذفُ خارجا فى هالة من صهد يومض ، وأهيم من فورى وسط لمة الكلاب فى ليل الشارع الخالى .. لا أشعر باضطراب الأنياب المسعورة حولى ، ولا أحس بعقرها ، لكنى أستشعر لذة غريبة كهذه التى تكمن فى عض الخدود الهائجة حتى فى ذروة الذروة .. هنا .. كلما طالت قدمى برازا من أبواز الكلاب الرطبة ولطخته ، لطمات .. وكأن قدمى حجر .

هذه المزرعة

رجحنا - نحن أعضاء لجنة تقصى الحقائق - أننا لن نمسك شيء ، ولن نعثر على أى أثر لحبوب منع الحمل المطحونة ، مضافة - كهرمونات للتسمين السريع - الى غذاء الدجاج المعد للذبح فى هذه المزرعة الكبيرة . فلقد أبدى المالك ترحيبا شديدا بمهمتنا ، ترحيباً يعكس فرط ثقته بنفسه وبترتيبات مزرعته ، ويعكس تهكما - يبطنه - منا ومن مسعانا . ومع ذلك ، وربما بسبب ذلك ، إضافة الى ضرورة التسديد الروتينى لخانات المهمة ، شرعنا نلتقط عينات مختلفة من ماء المساقى والعليقة والزرق ، للفحص ، وقررنا أن ننتقى بضع دجاجات حيّة نحملها معنا للتشريح ولأبحاث المعامل الحيوية ، لعلنا نكتشف شيئا ، وان كنا قد أجمعنا على ارجاء ذلك حتى نهاية الجولة .

فى أول مرورنا بالعنابر المقفلة داهمنا صهد ، ورطوبة مرتفعة ـ قدرنا نسبتها بأكثر من سبعين فى المائة . وكانت المصابيح الكثيفة المنتشرة فى السقف وعلى الحيطان تسطع حارة وتنصب على أكداس من الأقفاص السلكية الحاوية لدجاج من الهجين الأبيض الكريمى ذى الأعراف البرتقالية القصيرة ، من أنواع الشيوكلز والهوبارد والبلش والهيبرو التى يصعب التمييز بينها . ولفت نظرنا أمران ، أولهما : حشد هذه الأعداد الهائلة من الدجاج فى حيز بدا لنا ضيقا على نحو ما . والثانى : استخدام رجال من الأقزام المفضلين كمراقبين داخل العنابر ، يمسكون بعصى طويلة تنتهى فى ناحية منها برؤوس حراب صغيرة وفى الناحية الأخرى بخطاطيف مسننة تشبه مناجل دقيقة للحصاد . ولقد استشعرنا حرجا ولم نجد مناسبة لمفاتحة المالك فى أمر الأقزام ، لكننا سألناه عن هذا الجمع الحاشد للدجاج ، فأكد لنا بشهادة رسمية ـ أعطانا صورة منها ـ أنه لم يتجاوز قانون المزارع : . . اثنا عشر طائرا فى المتر المربع من كل طابق من طوابق الأقفاص وكان كلامه صحيحا بدلالة مسح سريع أجريناه فى أكثر من بقعة ونحن نمضى .

بدأنا نتبين التنسيق الصارم داخل العنابر التى بدت لنا ـ فى أول الأمر ـ عشوائية التكديس . لقد كانت الأقفاص المصنوعة من سلك الصلب المجلفن تنتظم فى بطاريات تضم كل منها عددا من الأقفاص ، تتلاصق فى صفوف ، وتتصاعد هرميا فى طوابق . وإذ تتراص البطاريات ظهرا لظهر ، وجنبا لجنب ، ثم تتعاقب ، يبدو المكان كساحة تزحمها جيوش من الدجاج المنضبط طوابير

طوابير داخل صفوف الأقفاص الممتدة بطول العنابر . . كل دجاجة فى قفص ، وكل الأقفاص محكمة ولا تسمح بأكثر من أن تمد الدجاجات رؤوسها والرقاب عبر فتحات فى واجهات الأقفاص ، كالنوافذ الضيقة ، تطل منها فتجد تحت مناقيرها خطوطا دوارة من سواق لا يفرغ ماؤها ، ومعالف لا تكف عن الامتلاء بفعل سلسلة تجرى فى باطنها فتجر معها العليقة . هذا بينما تمضى تحت مؤخرات الأقفاص خطوط أخرى كمجار من الصاج تجمع الزرق وتخرج به إلى حجرة جانبية من فتحة فى الجدار العرضى للعنبر ولم يكن هناك من دور للأقزام على ما يبدو إلا أن يدوروا ويدوروا فى المسارب بين صفوف الأقفاص ، ينخزون بأسنة الحراب كل دجاجة يغالبها النوم ، ويخرجون بالخطاطيف ـ بعد أن يفتحوا أبواب الأقفاص بها ـ تلك الدجاجات التى تنفق ، ويلقونها على سير متحرك فى الخلفية يغادر العنبر حاملا ، ويأتى خاليا عبر فتحة فى الجدار تجاور فتحة خروج الزرق .

كان الماء فى المساقى عادى الرائحة والمظهر باستثناء حمرة خفيفة لبرمنجنات التطهير المضافة إليه . وكانت العليقة تبدو عادية أيضا وإن كان أحد أعضاء لجنتنا قد أكد بعد أن تشمم حفنة منها وأمعن فيها ، أنها مكونة ، إضافة إلى المعتاد من النخالة والملح وزيت الينسون الفاتح للشهية ، من مسحوق الدم المتجمع أثناء الذبح ، ومسحوق لحم وعظام الدجاجات النافقة ، وبعض الزرق بعد معالجته . ولم ينكر المالك هذا ، بل راح يؤكد على أن ذلك يتم فى حدود النسب العلمية ، وقدم لنا

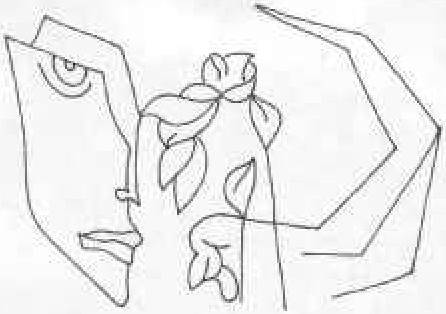

كتيبات بالانجليزية ثم اعتمادها محليا وبها جداول لتركيبات مختلفة من أعلاف الدواجن المحتوية على مخلفات معالجة . ولقد لفتنا هذا الى حشود الدجاج التى كانت تلتهم من العليقة بما يشبه شهية خرافية ، فهى لا تنام عبر أسابيع دورة التسمين المكثفة كلها ، اذ تبقيها المصابيح الحارة التى لا تنطفىء ووخزات حراب الأقزام يقظى ، فتمد رقابها وتخفض الرؤوس باتجاه خطوط العلف وتنقر . تنقر ، فتعطش . تعطش ، فتشرب . تشرب ، ثم ترفع رؤسها لكن يعشيها الضوء ، فتعود تطأطىء ، وتنقر . وتكرر ذلك ، بلا توقف ، ولا ابطاء ، حتى فى لحظات لفظها للزّرق .

تكاثف احساسنا بالضيق ونحن بعد فى منتصف الجولة ، وربما بتأثير الرطوبة المزعقة والصهد الخانق والضوضاء التى كنا ننتبه

اليها أكثر فأكثر والتى كان يحدثها النقر المتواصل لحشود الدجاج بمصاحبة أزيز المحولات الكهربائية المتصلة بالمصابيح ، هدير الموتورات ، والصوت الدائب لدوران خطوط الماء والمعالف ومجارى الزرق . ورحنا ننظر الى الأقزام العاملين فى هذا الجو كمخلوقات ذات استعداد خاص للتأقلم ، مما كان يضاعف شعورنا بعدم القدرة على احتمال المزيد ، ويزكى رغبتنا فى انهاء الجولة عند هذا الحد . وما كاد واحد منا يعلن عن ذلك حتى حصل على موافقة مطلقة ، وشرعنا نلتقط العينات الحية . . فتحنا قفصا . . اثنين . . . ثلاثة ، ثم توقفنا مدهوشين لرؤية أحد أعضاء لجنتنا وهو يندفع كأنما لسعة خاطر مفاجىء . . يفتح مزيدا من الأقفاص . . يفتح ، يفتح بفتح ، ويهتز بجنون وهو يفتح . . أبدا لم تقفز خارجة من قفصها ، ولا تقلقلت دجاجة .

البلاد البعيدة

كانت الشبورة الشتائية الهشة البيضاء تحجب وحشة الشوارع والأزقة الخالية من الناس ، وتطّيب واجهات البيوت التي كنت أخافها تصحو وتضبطني وأنا أفر ، وكنت خالعا حذائي أمسكه بيدي كأني أخشى لو تصدر قدماي دبيباً يُسمع ، فيُمسك بي ، وخطواتي تسارع كتسارع وجيب القلب الصغير الذي كان مخطوفا لقدام .. لقدام . فقطرات الندى كانت تبل قدمي بدغدغة حلوة ، فأضغط بها وهما ترطّان الأرض التي أهرب منها غير نادم أبدا ، وكأني أتدحرج ملهوجا لأرتمي في حضن يتطرى ويوسع لي الصدر ، والأذرع مفتوحة لتضمني حالاً . . . حالا ، في قطار ما أيدعه بي يسافر .

نفذت الى ساحة محطة القطارات عبر فتحة فى السور كنت أرصدها من زمن وأكاد أحفظ كل تعريجة تؤطر محيطها الحنون .. نفذت متلفّتا خافضا قامتى ، محتضنا حذائى وحقيبة المدرسة الدمور التى أودعتها « زوادة السفر » ، ثم اختبأت وراء عمود اشارات رأيت فانوس هامته الاحمر منورا بهيجا يبين رغم الشبورة ، وكنت أفتش بعينى : أى القطارات سأركب ، وفى أى عربة سيكون احتفائى .. وكدت أبكى لحيرة أمسكت بقلبى الواجف : تُرى أى القطارات يروح بعيدا لأركبه ؟ وقد كانت أمامى زحمة من قطارات تطرس الأرصفة ، أرى مقدم بعضها وبعضها لا يطالعنى الا بأواخره ، ثم رأيت أشباحا داكنة غير بعيدة عنى تشغى بحركة أخرجتنى من قبض الحيرة .. كانت الاشباح لرجال يلبسون أردية خضراء بها أزرار نحاسية .. كانوا يروحون .. يختفون للحظات .. ثم يعاودون الظهور وقد انحنوا يحملون أشياء على أكتافهم ، وكنت أتساحب من وراء الاعمدة لأتمكن من رؤيتهم عن قرب دون أن يلحظ أحدهم وجودى . كانوا يحملون رُزما من الجرائد ويدخلون بها واحدة من عربات قطار ويخرجون بدونها ، ثم أنهم بعد ذلك راحوا ، غابوا قليلا ، وعادوا يدفعون أمامهم بعربات حديدية صغيرة محملة بأجولة مخططة ، مغلقة ، مختومة ، وتوقفوا أمام عربة قرأت عليها كلمة « بريد » مكتوبة بخط جميل كبير وبلون أحمر ، وشرعوا - وأنا أكاد أبرز لهم لفرط ما فرحت - ينقلون الأجولة إلى داخل هذه العربة التى كانت آخر عربات القطار . كنت أعرف

أن البريد يعنى « الجوابات » .. الجوابات التى تروح الى كل الدنيا وتصل الى كل البلاد حتى لو كانت أبعدها .. ولابد أن بهذه الاجولة « جوابا » مرسلا الى « البلاد البعيدة » .. وكدت أتطاير وأطير لادخل هذه العربة التى وجدت فيها أول عصفور ينطلق حقيقة بحلمى .. لكن أول التحقق هدهد تطايرى ..

تريثت مغتبطا أقعد وراء ساتر لاراجع « زوادة سفرى » مثلما كان يفعل أبى قبيل سفره .. ها هى ذى البيضات الثلاث التى سرقتها من عشة الدجاج وسلقتها خلسة ، وها هى الارغفة الثلاثة التى بدأت بتخبئتها تحت ملابسى عندما أخذتها ، وها هى قطعة الجبن القريش لكنها تفتت فى الورقة مضغوطة فى لوحة الاعداد ، وها هى حبة الطماطم ، وجميل انها لم تُفعص وبقيت سليمة ، وأعدت هذا كله مرتبا الى حقيبة المدرسة الدمور ذات الاذنين من نفس القماش تُحمل منها ، فوسعته جميعا ، بل رحبّت بفردتى الحذاء أيضا . وراجعت « ماليتى » : تسعة قروش ، ادخرتها بعناء كثير ، وحفظتها مصرورة فى منديل لم يكن ليفارقنى أبدا .. ربطت طرف المنديل فى عروة بنطلونى ثم أدخلت الصرة فى الجيب الصغير ، ونهضت أراقب عربة البريد وأشباح الرجال الحمّالين ، وما كادوا يختفون للحظة حتى جريت وكأنى أطير ... مرقت فى طراوة الشبورة الكثيفة ، وقفزت الى داخل عربة البريد أختبىء وراء زحمة الاجولة المخططة .

وما لبثوا حتى جاءوا دون أن أراهم . كنت أسمعهم فقط ، يحدثون جلبة ويتكلمون بأصوات خشنة عالية ، واقفلوا باب

العربة فابتلعت الظلمة ما كان منتشرا حولى من نور رصاصى يبتدى به النهار .

أحسست بتواصل الرعدة الطيبة تسرى فى بدن القطار ، وسمعت جرسا يدق وصفارة تزغرد ، ثم عندما لطمت الاجولة الواقفة بدنى المكور خلفها وهى ترجع .. عرفت أننى أنطلق ، وكانت دمدمة القطار تشتجر فتتكتك ثم يكون مع الاسراع هدير .. وأنا فرحت بهذا الهدير ، إذ كنت عارفا رغم الظلمة ان الارض تُطوى وتخلف فى الوراء .. ومن فرط فرحى خرجت من بين الاجولة أتطوح ، وأثبّت قدمى بأرض العربة حتى لا أقع ، أو أتلاطم مع الجدران الحديدية ، وكان قلبى المخطوف لقدام ينط فرحا فى صدرى وأسمع صوت نطه ، وودت لو أعرف أغنية أغنيها على إيقاع هذا الوجيب الفرح ، وواتتنى الرغبة : أن آكل كل زوادتى ، لأنى عندما أفرح أجوع ، وشيئا فشيئا كانت عيناى تتعودان الظلمة فأرى المكان حولى أقل غموضا وأكثر ايحاء ..

رحت أحب كل البلاد التى أطمح إليها واليها يشدّ الفؤاد : « مصر » التى جذبنى اليها حديث أبى والآخرين .. أم العمائر العالية التى يبين تحتها البشر كأسراب نمل ، والترام ـ القطار الذى يمشى فى الشوارع وتركبه الناس حتى لا تتعب أرجلهم وهم ذاهبون إلى كل الاماكن المدهشة الجميلة : « جنينة الحيوانات » التى بها الفيل أبو زلومة تركبه العيال وهو طيب لا يؤذى ، وسيد قشطة الذى فى الماء يغطس ويقب ، والاسد المخيف المحبوس ، والسناس التى تقزقز لباً كبنى آدم وتحب الموز والفول السودانى ،

وكبنى آدم تفرح حينا وحينا تغتاظ . وأبو الهول الذى نصفه انسان ورأسه رأس أسد يطول السحاب وجنبه يكون الهرم الذى من يبلغ قمته يلمس بيده سقف الدنيا . ياه .... مصر ....

واسكندرية .. اسكندرية ببحرها الذى ليس له آخر وفيه المراكب تسافر الى بلاد الخواجات ذات الثلج ابيض كالحليب .

وفيه كل الناس تعوم .. يبلبطون ويضحكون ويصيدون السمك الكهربا والملون وأم الخلول اللذيذة والمحار الذى عندما تميل عليه الأذن تسمع وشوشة وكلاما عجيبا كله ، ثم تجاوزت هذه البلاد مصر واسكندرية ، وبعدت .. بعدت الى البلاد البعيدة : ذروة حلم صحوى ونومى البهية الالوان .. بلاد بعيدة لم أكن أعرف أساميها ، لكننى كنت موقنا أنها بلاد ليس فيها مدارس بائخة حولها أسوار خانقة وداخلها يتربص مدرسون غلاظ الوجوه والقلوب يغرزون أظافرهم فى (صرصور) الاذن ويضربون بالعصى على اطراف الاصابع وعلى ظهور الايادى فى الشتاء وكثيرا ما يضربون على المؤخرات حيث يكون الواحد المضروب ذليلا مهانا لا يستطيع أبدا الافلات من وضع (العَبْط) بينما يمسك باليدين اناس كان يظنهم الواحد أخوة له فيكتشف انهم زبانية للمدرسين الغلاظ ، بل زبانية قساة يشدون اليدين والواحد مثنى على الدرج شدا بشعا يؤلم احيانا أكثر من ايلام الضربات التى تهوى على المؤخرة المسكينة .. آه .. بلاد بعيدة .. بلاد لا يفاجأ فيها الانسان بلطمة على الصدغ ترج الدماغ اذا ما شرد بحلم .. بلاد لا يُجبر فيها الانسان على

الاستيقاظ في الصباحات الباكرة الباردة ويقتلع من دفء الأسرّة اللذيذة ليذهب الى مدارس سخيفة لا تعطى شيئا الا الضرب والشتم وكتم الأنفاس والتذنيب بالوقوف ورفع الايادى أو بالركوع على حصوتين لساعات طويلة . . . بلاد كبيرها مثل صغيرها حيث لا تكون السن حجة تجبر الصغير على الذهاب الى مشاوير بلا معنى ، وبعد المجىء منها لا ينقطع التوبيخ . . بلاد بعيدة . . بلاد ليس بها (دكاكين) يذهب اليها الصغار بعد الخروج من المدارس السخيفة فيشتمون مزيدا من الشتم ويذنّبون أيضا لكن هذه المرة بحمل منشات يروّحون بها على وجوه لا تختلف في غلظتها عن غلظة وجوه المدرسين ثم تكل أياديهم من حل الطلبات ، ولا يخلو الامر من ضربات تهوى وتكون هذه المرة بشىء من حديد وبغير سابق انذار . . . بلاد ليس فيها بيوت تأكل ، كل يوم كل يوم ، كشرى أو بصارة ولا تزورها أبدا الفاكهة الحلوة ، بينما لا تنقطع فيها الامهات عن النزول على البدن بكل دعوات المصيبة والطاعون والنقطة والسخونة الحامية وضربة الدم والقرص من (اللباليب) والعج في الظهر ، ومع ذلك لا يكف نواحهن والبكاء ! . بلاد ليس بها آباء يسعلون بلا انقطاع ويبصقون دما أحيانا وتتحشرج أنفاسهم كثيرا ويزعقون دائما ، ودائما ينهالون على المرء لطما وركلا دونما سبب ولا يبرح الحزن وجوههم رغم ذلك . بلاد ليس فيها أولاد يضربون بالطوب ويعضون اذا ما تعاركوا ويسرقون من بعضهم البعض البلى و (الكازوز) وحتى نوى المشمش اللى تصنع منه الصفافير يسرقونه ، ويدمنون الفتنة ليقع الايذاء على الآخرين

بالكذب ومع ذلك لا يسلم أحدهم من شر الايذاء . حتى الكلاب الجربة التعيسة تغدر بالعض ، والقطط النحيفة تخطف ما تلقاه . . ياه . . بلاد ليس بها هذا الغم . . بلاد بعيدة لم أكن أعرف أساميها ، لكنى كنت أرى في الظلمة الأنيسة كل دروب غاباتها الخضراء وكل أشكال شجرها الملون المثمر ونخيلها الخفيض المثقل بالرطب ، وكنت أعرف لغة كل حيواناتها التى تصاحب الانسان وتكلمه وأعرف بالطبع لغة ناسها العراة المسالمين الذين لا يقاسون حرا ولا بردا وسلامهم ليس بالايادى بل بالابتسام . . بسمة تعنى السلام عليكم ، فترد البسمة بسمة مثلها . . بلاد لا تخلو من ملائكة تطير بأجنحة من فضة وذهب ، فتضىء دائما ، تحفها عصافير ملونة تصدح بموسيقى وغناء . .

بلاد أنهارها تنبع من عيون في جبال خضراء وتجرى بعسل وماء حلو ، ولم أكن لأكف عن الحلم بها أبدا ، وسافرت اليها روحى آلاف المرات في أحلام كنت أتيحها لنفسى رغم كل شىء . وقد كان القطار يهدر وأحسه يطير إلى البلاد البعيدة ، فأحس بالجوع . . وكنت أرتب للطعام في الظلمة دون أن أغادر صور هذه البلاد ، مطمحى . وتحسست جوالا مسطوحا من أجولة البريد واقتعدته ، وعندما مددت يدى في حقيبة الدمور التى لم تفارقنى أتلمس الزوادة لآكل : إنّ الكيس تحتى . . أنّ الكيس قيت في جلستى ، ثم إن الكيس صرخ بكلام غريب . . رفيع الصوت . . قال : « اه صدرى . . حرام عليك . . أفطس حرام عليك . . خرّجنى » وكان نيسى يتحل وأنا أسمع

ذلك فتطير من يدى حقيبة الدمور .. تبعثر الزوادة فتضرب البيضات والأرغفة وحبة الطماطم وجه شجر البلاد البعيدة، وناسها، وحيوانها .. فتتقلص جميعا وتعبس وأنا خائف والعربة المقفلة ليس بها من مهرب، ثم سمعت الصوت الرفيع يتوسل أن أخرجه، وتأكدت أنه صوت رفيع بالفعل بل رفيع وهش .. صوت بنت، فرحت أنحنى نصف مطمئن ونصف خائف .. أرتعش وأنا أفتح فوهة الجوال .. أفك عقدة الحبل المشدود خلال عراو معدنية وأرخيه، ثم أحسست بشىء يرف ويطول ويخرج من الجوال حتى انتصب صغيرا فى مثل طولى يقف فى مواجهتى، ولم أعد أرتعش اذ تأكدت من كون هذا الشىء بنتا ... بنتا صغيرة مثل كانت الظلمة التى خفت كثافتها تبينها لى شبحا أحسست احساسا غامضا بطيبته، ورحت أتأكد من ذلك. سألتها عمن تكون فأخبرتنى أن اسمها نوارة وأنها كل يوم كل يوم تختبىء فى جوال وتنام فى القطارات لكنهم فى هذا اليوم ربطوا الجوال ربطة متينة، وسألتنى فقلت لها أنى مسافر .. مسافر الى مصر واسكندرية و ... وضحكت وهى تخبرنى أنى خائب ولا أعرف، وأن القطار الذى يروح مصر لا يروح اسكندرية فى نفس الوقت، وكنت مستغربا لهذا لكنى مطمئن اليها وأدرك بشكل غامض أنها صغيرة مثلى لكنها تعرف الكثير.. واكتشفت، بل هى التى نبهتنى الى وجود ثقب فى جدار العربة تنفذ خلاله حزمة رفيعة من الضوء الذى كانت تسبح فيه ذرات الغبار متحركة ببطء .. كان الثقب فى مستوى قامتينا فجعلنا نتبادل النظر الى الخارج من خلاله .. أرى حقولا

تطوى وشجرا قريبا يمرق مع أعمدة تحمل أسلاكا، ووراءها فى البعيد تجرى فى اتجاه معاكس لأشجار داكنة تصنع قوسا لا يبلغ طرفه القطار أبدا. وعندما أخبرت نوارة أن الأشجار تجرى ضحكت وأخبرتنى أن الأشجار لا تجرى بل أن القطار هو الذى يجرى، وفكرت فى ذلك فتيقنت أنها صغيرة حقا لكنها تعرف الكثير. وكنت أسألها كلما توقف القطار هل جاءت مصر فتنظر من الثقب وتخبرنى أنها لم تأت بعد، وأخبرتنى أن محطات أخرى كثيرة ستأتى ويتوقف عندها القطار قبل أن يصل الى مصر.

وكنت أصدقها .. كنت أصدقها وأطمئن اليها وفكرت لو تأكل معى، فانحنيت أبحث عما تناثر من الزوادة. وعندما رأتنى نوارة سألتنى عما أفعل، فقلت لها، وسألتنى ان كنت سأدعها تأكل معى فأجبت بنعم لأشعر بها كأنما ترقص وتزقزق فرحة .. صوتا صغيرا كانت وصوتا صغيرا كنت، وجمعنا من أرضية عربة القطار السوداء ما أمكننا: رغيفين وبيضة وحبة طماطم وفتافيت من قطعة الجبن القريش .. قعدنا واقتسمنا كل شىء، ومع أول لقمة بدأنا نحس بهواء مسموم بالبرد يلفحنا معا ولا نعرف من أين يأتى لأن الثقب وحده كان صغيرا جدا .. أخذنا نتضاغط، ونتحرك مرتبكين لنهرب من هذا البرد، فندخل بين الأجولة الواقفة .. فرغت من بين أيدينا الأرغفة الاثنين والغموس القليل وكانت الأجولة الواقفة تحوش عنا الهواء لكن البرد كان مصرا على التسلل ليلسعنا معا، فرحنا نفرغ أحد الأجولة لندخل فيه لعلنا نختبىء من البرد. كنا قد فكرنا فى

ذلك ـ وكانت الخطابات تخرج فتعمل رفرفة فى خروجها وقالت نواره وهى تقصد صوت خروج الخطابات انها مثل الحمام الذى يطير وكان هذا صحيحا وجميلا حتى اننى وددت لو أفرغ كل الاجولة لاسمع هذه الرفرفة من جديد ، لكن البرد كان شديدا وكنت اتعجل الدخول فى الجوال الذى أفرغناه . دخلت الجوال ثم راحت تتبعنى نواره ، لكنها لم تستطع اذ كان الجوال لا يسعنا هكذا ، فخرجت . ووقفنا حائرين نتساءل : كيف يسعنا الجوال معا ؟ وفكرت أننى ارتديت كل ما عندى من ملابس قبل ان اخرج حيث كان الصباح شديد البرد وانا أتسلل من البيت .

وأخذت اخلع بعض ملابسى لعلى أكون أرفع فيسعنا الكيس ـ نوارة وأنا ـ معا . وسألتنى عما أفعل . . وقبل ان أجيب عادت تسألنى ان كنت عريسا لاخلع ملابسى ؟ استغربت ماذا تعنى ، وسألتها لماذا تقول ذلك ، فأخبرتنى انها شافت : كانت تخدم عريسا وعروسة وشافت . . شافتهما : العريس ينام عريانا وعروسه معه تنام عريانه ، وفى الصباح تقوم العروس لتطبخ طعاما ويروح العريس الى الشغل ، وأخبرتنى نوارة انها كانت تسمعهما يضحكان فرحين بذلك ، وسألتنى لو نعمل عريسا وعروسة ، وكنت مدهوشا وأحب منها أن تقول كثيرا فى ذلك فقد كان هذا الشىء يشبه ما يكونه ناس البلاد البعيدة التى أنا ساع اليها . ورحنا فرحين نرتعش من شدة البرد ونحن نخلع كل ما نلبس . . رغم البرد كان هذا الاحساس بالعرى جميلا وفكرت ان السمك لابد يكون فرحان ، ووددت لو أعود عاريا

هكذا فى ماء ، وفكرت لو أن الماء يكون دافئا ليصبح هذا الشىء أجمل ، وانزلقت فدخلت الجوال بسهولة ، ثم دخلت تنزلق لصقى نوارة . . ووددت لو انها تخرج وتعاود هذا الانزلاق . . لقد كان ذلك أجمل وأعذب حس جربته . . ان يشعر الانسان بنفسه محررا وخفيفا ويسيطر بسهولة على كل أطرافه كأنها جميعا بقربه . . ثم فى البرد يجد الانسان شيئا فيه طراوة ودفء ونعومة يمس جلده ، ويكون اللمس أيضا ، وتتسع مساحة هذا اللمس حتى يود الانسان لو يلمس جلده جميعا فلا تترك قطعة ولو صغيرة بغير هذا اللمس . . خليط باهر من الدفء الحنون والدغدغة واللعب والايناس ، ثم وجدت يدىّ تشقان طريقا فى هذه الزحمة لاحيط (نوارة) بذراعى ، وكانت هى تفعل ذلك أيضا ، وحقا كما قالت كان هذا الأمر يجلب سعادة من لا شىء حتى أن الانسان يحب كثيرا أن يضحك . . لقد كنا نضحك حتى نسمع صوت ضحكنا أعلى من هدير القطار . . واكتشفت لذة هائلة فى أن أفرك جلدها بجلدى وأن تفعل هى نفس الشىء . .

كنت أتحرك وهى تتحرك فتحتك صدورنا ، وترفس فتخلل سيقاننا بعضها بعضا باحتكاك ، وكنت أمرغ وجهى فى وجهها حتى تحتك الخدود ، وأحسست بشىء لم يحدث لى أبدا من قبل ، وقد سألتنى عنه نوارة فلم أعرف جوابا ، وكنا لا نتوقف عن هذا الحراك الذى يفرك الجلد بالجلد ، حتى أننا نفضنا عن الجوال ترابا كثيرا جعلنا نعطس ، فتوقفنا وقد أحسسنا بالتعب وكان هناك فى الفم رفق وهى تحتضن بكفيها الصغيرتين ظهرى ، وأنا

أحضن ظهرها بكفى ، وتلمست عظام ظهرها الدقيقة التى حسبت أن شيئا لا يغطيها الا هذا الجلد الرقيق الدافئ ، فضعفت على حتى أنى خفت لو أبكى وقلت لها بغير ما مناسبة وفجأة انى سآخذها معى الى البلاد البعيدة وكنت أضمها بشدة فلانت تطاوعنى حتى أنها تقتعدت فأصبحت صغيرة جدا فى حضنى ، وسألتنى عما تكون هذه البلاد البعيدة . عطست أوغل فى الجوال وأنا لا أتركها ولمت فوعته كأنى أغلق بابا لنكون فى مأمن وأقول لها سرى .. وفى الظلمة الودود ، والدفء الطيب ، ورائحة التراب والكتان والمطر التى لم أميز ابدا من أين تنبعث .. منها ، أم منى ، أم من جوال البريد ، وفى الأثر الصغير من الصوت الذى بقى من هدير القطار وشيئا نكاد فى مكمننا نسمعه ، رحت أوشوشها .. حكيت لها عن البلاد البعيدة وكنت أتمتم زحرفة نسيجى .. جزائر فى بحر ليس له آخر ، وغابات من بين شجرها الولود الدانى الثمار تطلع الشمس .. قلت لها أنى سآخذها معى لنأكل من هذا الثمر الدانى الكثير الألوان المسكر ، وقلت لها كثيرا حتى وجدتها تنعس فى حضنى وأسمع رفيف أنفاسها ، ولابد أنى نعست مثلها اذ فتحت عينى مذعورا فجأة .....

أحسست ببرد يُصيب على عُرىّ ، وكان الضوء يقرع عينىّ ، ووجدت أصابعى تتشنج لا اراديا وهى تتشبث بفوهة الجوال وكان هناك وجه فظيع ينظر الىّ بالشر من قريب ، تحمله عنق غليظة تدخل فى جاكتة سوداء خشنة تبرق فيها أزرار من

نحاس ، وكانت هناك خيزرانه رفيعة أراها تظهر مارقة فى ساحة ما أبصر ثم تغيب فأحسها تضرب على الجوال .. كانت بعض الضربات تقع على مكان بدنى ، ولابد أن بعضها الآخر كان يقع على مكان بدن نوارة التى كانت لا تزال متقفعة وان استيقظت ولم تجد شيئا تتشبث به غير جسمى ، ثم أنى تنبهت إلى صوت الرجل الفظيع يأمرنا أن نخرج من الجوال وهو لا يتوقف عن الضرب .

وكان يلفح وجهى برائحة فظيعة تخرج من فمه مع الأمر والشتيمة ، ثم أحسست بشعرى يكاد ينخلع وفروة رأسى تشتعل بألم هائل .. لقد كان يسحبنى من شعرى ليخرجنى من الجوال ، وكانت يده كبيرة تلم شعرى كله وأحس أصابعها تكاد تحطم صندوق دماغى .. ووجدتنى أخرج ، ساحبا معى نوارة التى تعلقت بوسطى ، لا أعرف لماذا تذكرت صورة أرنب مذبوح تُسلخ فروته فى هذه اللحظة .. كنت عاجزا عن الصراخ وعن البكاء وقد تيبست ولم أستطع حتى أن أطيع الذى أدركت أنه عسكرى يأمرنى أن أقف وهو يلسع جسمى بخيزرانته ، وكانت نوارة متيبسة أيضا وقد تحجرت أذرعها حول وسطى ، فنال كثيرا من الضرب ، والعسكرى يأمرها وينادنها بشتيمة أن تتركنى .. ثم كان بدنى العريان ومعه بدن نوارة يكنس تراب أرض عربة البريد الباردة ، وينهد عند عتبة الباب ليكنس هذه المرة تراب الرصيف ، الناقع ، وكانت اليد الرهيبة تفعل هذا كله بشدى من شعرى .. ثم تغير اتجاه الشد الى أعلى ، ووجدتنى أنتصب واقفا ، فوقفت جنبى نوارة وانفصلت عنى

أخيرا ، فرأيتها جميلة ومعفرة رغم شحوبها الذى جعلها بلون شمعة ، لكننى لم أرها أكثر اذ عاد ضرب الخيزرانة يهوى .. لقد أوقفنا العسكرى وظهورنا يأكلها جدار كالثلج ألصقنا به وانهال بضرب وهو يهددنا بالموت لو حاولنا الجرى ، ثم أوقف الضرب عندما وضع الخيزرانة تحت إبطه ، وخلع من حزامه قيدا حديديا وضع فى حلقة واحدة منه يدينا : يدى اليسرى ويد نوارة اليمنى ، وساقنا وسط الزحمة القاسية عريانين تحت السقف الجمالون الكالح حتى أدخلونا الى حجرة ، وجاء عساكر آخرون ، ثم قلبونا على ظهورنا ورفعوا أقدامنا الى أعلى حيث وضعوا الأقدام فى فلكة واحدة برموا حبالها طويلا حتى تمسك جيدا بالأرساغ النحيلة فلا تتحرك .. كانوا يرددون أننا ـ نوارة وأنا ـ « حرامية الطرود » اللذان أمسكا أخيرا . أخذوا يسألوننا عمن « يشغلنا لحسابه » وعن أشياء زعموا أننا سرقناها ، وكانت الأقدام الصغيرة تشوى بعصا من الجريد .. كانت نوارة تصرخ صراخا حادا متواصلا وتقول أنها لم تسرق شيئا . وكنت أقول أصرخ أيضا وأحس مع الضرب بدموع تنسكب حارة لتسيل على جانبى وجهى وتبل شعرى وأذنى .. كنت أقول أننى لم أسرق شيئا ، وأخبرهم بأننى كنت مسافرا فقط .. مسافرا الى « مصر » والى « اسكندرية » و ... وخفت لا أدرى لماذا أن اقول : « البلاد البعيدة » .. خفت ، وكان ألمى وصراخى مشوبين بخجل غريب من نوارة ، حتى أننى لم ألتفت أبدا لأراها وقد كان صراخها الحاد المتواصل يذبح فىّ كسكين ، ثم توقفوا عن

الضرب وفكوا حبسة أرساغنا وكنت لا أستطيع الوقوف توا . ثم أحضروا الينا ملابسنا فلبسناها ، وسمعتهم يتكلمون عن أشياء مثل : « ايداع مؤسسة أحداث » و « تسليم بتعهد لولى الأمر » ، ولم أكن أفكر فى هذا أبدا .. كنت أفكر لو أكبر فجأة وأستطيع ضربهم جميعا .. وكنت خائفا أن أصبح عاجزا عن المشى عندما أكبر هذا لما كانت عيونهم تتحول عنى كنت أجرّب قدمىّ . وكاننا نتحركان .

الأسوار

وهم تفر من المسجونين لديه ، كان رأس السجن الكبير يخشاهم . .

يخشى بالذات معرفتهم الدقيقة بلائحة السجون وتمسكهم الشرس بتزير ماهم من حقوق ، ولولا هذا لأصدر أمره بمنعهم من مغادرة الزنزانات وحرمانهم من طابور الفسحة في أرجاء حوش السجن المتقلص ، لكنهم كانوا ملتزمين بنظام المسجونين حتى وهم يصعدون سلم مستشفى السجن في طابور الفسحة ، ويقفون بأعلاه طارحين صدورهم على الدرابزين . . يمدون رقابهم ويحدقون طويلاً في شيء ما ، كأنهم ينتظرون هذا الشيء يأتي ويبصرونه خارج الأسوار ، وهم يفعلون ذلك باستمرار منذ جاءوا ، وفي وقت الظهيرة بالتحديد ، حيث في لحظة معينة :

يبدأ واحد منهم فى التلويح لشىء ما خارج السور فيشرعون جميعاً بعده فى التلويح . .

هل كانوا يعطون إشارات ، ما ، لأحد فى الخارج ؟ هل كانوا يقذفون بأوراق أو خطابات وهم يصطنعون ذلك التلويح الذى بدا له مجرداً من المعنى ؟ ولقد لام « المأمور » نفسه إذ لم يفكر فى هذا الأمر من قبل ويضبطهم فى مخالفة يترجمها فى تصرفهم - هذا - اليومى - الغريب ، ويودعهم الزنزانات الإنفرادية ، وربما استحقوا الجلد أيضاً ، وتنهد فى ضيق ، لكنه على أية حال قد أعد عدته اليوم لضبطهم وهم لا يشعرون . . اذ وضع أحد العساكر تحت السور فى الخارج ليراقب ما يحدث فى الشارع عند هذه اللحظة ، وأعطى أمراً مشدداً لعساكر الأبراج ان يفتحوا

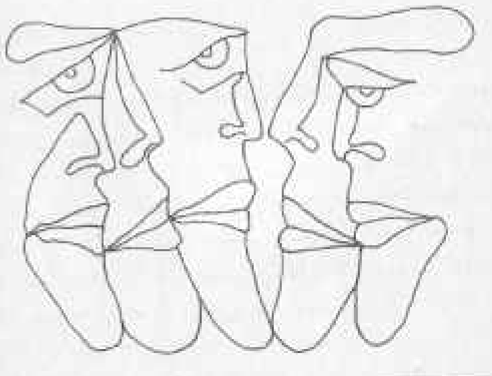

عيونهم جيداً وتكون صفاراتهم على أهبة الاستعداد للإنطلاق حتى تتحرك فرقة الحرس الاضافية التى جهّزها ، ثم انه أخلى الحوش ومنع المسجونين الخمسة الذين يسهل التحكم فيهم من مغادرة العنبر ، وتسلل خلسة ليختفى فى التكعيبة القائمة أمام المدخل حيث كان يمكنه رؤية هؤلاء المسجونين الخمسة بظهورهم وهم فوق ، ويراقبهم بدقة من خلال الثغرات الكائنة بين تشابك أفرع اللوف واللبلاب فى مكمنه هذا ، وكان مضطرباً إذ راح يتبدل الجو الى برودة ، وكانت تغيم السماء . . فيما يعنى أنها ستمطر .

●

كانوا يعرفون إذ يبدأ الحديث عنهم بأنهم أصلب خمسة رجال فى المدينة التى يسكنها مليون من البشر ، وكانت تُحكى عنهم الحكايات التى تبلغ حد الخرافة ، هكذا كانوا محاطين بهالة من الإكبار حتى من قبل العساكر والضباط المعينين لحراستهم ، وقد كان فى انتظارهم حكم بالأشغال الشاقة المؤبدة ، بدوا برغمه غير عابئين ورابطى الجأش مما كان يكثفُ حولهم الهالة ويوحى بأنهم كائنات أعلى من مرتبة البشر العاديين ويبعث دائماً بذكرى اليوم الصاخب الذى حكموا فيه المدينة وهم يحرّكون عشرات الألاف من البشر الساخطين . . يتظاهرون وقد امتلكوا كل الشوارع ، وراحوا يكتسحون أمامهم النقيض كخرق من ورق قديم تطيّرها رياح جامحة . وعندما تبدّل الأمر ورجحت كفة النقيض قُبض

على مائة وخمسين رجلاً راحوا يخرجون من السجن تباعاً حتى تبقى خمسة لم تعد تلوح أى بارقة أمل فى خروجهم : الطبيب الشاحب الصغير الجسم ذو العينين الساهمتين الغريبتى التحديق ، والمدرس الضخم الذى يبدو وهو ينتقل كأن كل قطعة فيه تتقافز بعصبية ، وعامل البناء الأسود الفارع ذو الملامح الزنجية دائم الابتسام ، وطالب الحقوق بالغ الوسامة ذو الشعر السائب المتطاير ، وفتى المعمل الربعة المدكوك

كانوا يمثلون خمس جمرات تبدو ساكنة منطفئة لكن عندما يُنفخ فيها تتهارج ملتهبة لتصنع حريقا هائلا بحجم مدينة ، وفى الفترة الأولى المبكرة من سجنهم عندما كانت نبرة السخط لا تزال تُسمع فى الشوارع كانت المدينة ـ تكاد أن تكون جميعها ـ تتوافد لتراهم من وراء القضبان .. طلاب المدارس والجامعة ، وفتيات من كل عمر ، ورجال من كل مهنة ، وحتى عجائز النسوة والشيوخ كانوا يأتون ، يتقاطرون على مدار اليوم ويأخذون فى الدوران بلا كلل حول السجن لعلهم يلمحون واحداً من « فرقة الشجعان » ـ كما كانت تدعى ثلة الخمسة ـ ويطيرون إليهم قبلة فى الهواء أو هزة يد ترسم أصابعها علامة النصر أو هتافا حماسيا أو مجرد نظرة لا تخلو من دفء المعنى بالتواصل ، وكان عساكر السور يفشلون دوماً فى ردّهم أو تخويفهم فقد كانوا كثرةً ويأتون دائماً فى جماعات .

وكأن بالفعل وليس بتنغيم شطرة شعر بدأ يغمغم بها الطبيب الساهم : « إن طول الجرح يُغرى بالتناسى » أخذت وفود الآتين

لرؤية الخمسة تقل رويداً رويداً حتى لم يأتِ زائر واحد ولفترات راحت تطول ، وكأن العالم المختزل إلى سجن تُقتطع منه زيارات الناس فيختزل أكثر ، وكلما أوغلت الشهور يتحول الواحد من الخمسة الى مجرد مسجون ، وتتحول القضية التى سُجن من أجلها الى مجرد ذكرى .. مجرد ذكرى لا تؤنس كثيراً مهما كانت درجة اليقين فيها ، وكانت تظهر على الخمسة سيماء الحزن المكتوم بالأسوار ، الذى يظهر فى شكل الصفرة الشاحبة والترهل المتزايدين كلما قدم العهد بالحبس ، وكانت هناك لحظة وحيدة عند الظهيرة من كل يوم تأتى للخمسة فلا يتخلفون أبدا عن لقائها ، تلك هى لحظة مرور الأطفال الذاهبين الى الاستاد والذين يمكن رؤيتهم من فوق سلم مستشفى السجن .. يمر الأولاد والبنات فى جماعة كبيرة متقاربة كعنقود ، وعندما تقع أعينهم على « ناس مسجونين » يظهرون من فوق أسوار السجن يتوقفون .. يتنادون مُخبرين بعضهم البعض « المسجونين .. المسجونين » ثم يسكتون إذ يتنبهون جميعاً الى المشهد ، ويأخذون فى تأمل مفعم برقة الإشفاق الطفل . وعندما يلّوح لهم بيده أحد المسجونين الخمسة يكتشف الصغار لعبة طريفة وينسون الإشفاق .. يلوحون جميعا للمسجون الذى يلوّح ، ثم أن الأطفال يميلون أكثر الى التقليد والتنافس ، فعندما يخرج أحد المسجونين منديلا يلوح به للاطفال يخرجون جميعا مناديلهم ويلوحون ، ومن ليس معه منديل يبحث عن أى شيء يلوّح به : ورقة بيضاء أو قائلة الألعاب ، ولما يأخذ المسجونون الخمسة فى

التلويح ـ معاً ـ للأطفال يروح الأطفال فى تقافز مبتهج يلوحون بتصايح وكأنهم فازوا وجعلوا الخمسة صغاراً مثلهم ، ومثلهم يلوحون ، ثم أن الأطفال يريدون معرفة من يخسر ويُنزل يده أولاً يستمرون فى التلويح للمسجونين ، لكن المسجونين الخمسة لا ينزلون أياديهم ، ويستمرون فى التلويح

ولما كان الأطفال وهم لا ينسون ميعاد لعبهم فى الاستاد ، يريدون الإنصراف فى نفس الوقت ألا يخسروا بتحرك موكبهم صوب الاستاد وأياديهم المرفوعة لا تنزل ، ولا تكف عن التلويح ، حتى يخلو منهم الشارع .. يخلو ويصبح مُوحشا كاللحظة التى تسبق الإجهاش بالبكاء .

وهل كانت هذه اللحظة مجرد لعبة يلعبها فريق « الشجعان » الخمسة ، ويستعدون لها بالإنتظار كل يوم ؟ إن واحداً منهم لم يقل أبدا للآخر أنه ينتظر الأطفال ، ومع ذلك كانوا يصعدون جميعا

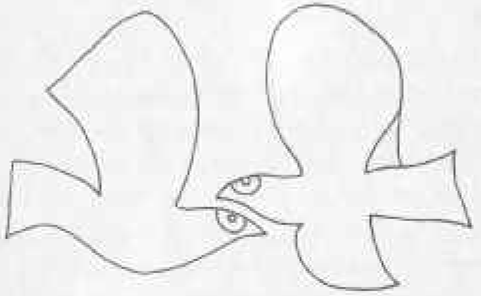

درجات السلم عند الظهيرة ، وينتظرون فى صمت وهم يحدقون بتململ واضح فى ساحة الشارع التى تقع فى حيز رؤيتهم من موقعهم هذا . وكأنهم خجلون من البوح بهذا الأمر الصغير ، يتبادلون النظرات التى لا تستقر ، واذا استقرت يهرب منهم الواحد بعينيه وقد ظن أن زميله قد كشفه ويبادر بالتمويه : « على فكرة بيت خطيبتى قريب من هنا وهى بتمر من السكة دى » رغم معرفته أن زميله يعرف كونه أصبح بلا خطيبة وقد ارسلت اليه الخطبة دبلتها عندما صدر قرار الاتهام ولاح حكم المؤبد ممكنا ، أو يقول واحد لآخر « يا أخى المنظر من هنا حلو جداً ومريح » رغم معرفتهم جميعا ان شيئا لا يبين لهم الا قطعة من شريط أسفلت كالح ورصيفا يحده سور الاستاد الذى يخفى ما وراءه وكانوا واقفين بأعلى السلم منذ ثلاث ساعات وقد بدأت تمطر .

ثم أن المطر راح يشتد ، فرفعوا ياقات ستراتهم وكانت رؤوسهم تبتل ، ويسيل الماء على وجوههم ثم ينزل الى الصدور ، فيرتعشون ، ويقول أحدهم وهو يرتعش .. « يا أخى المطر دا شىء جميل » . ويؤمنون على قوله وهم يرتعشون : « فعلا . فعلا » . ثم عندما بدأت الريح فى توجيه المطر الى وجوههم وصدورهم مباشرة راحوا يتراجعون ويلتصقون بالحائط الذى يخرج منه السلم وينظرون مع ذلك بزوايا عيونهم التى لم تكن لتفلت أبداً رؤية قطعة الأسفلت التى يرقبونها منذ أكثر من ساعات ثلاث ، وقال أحدهم بعد أن نظر الى ساعته التى مسح عن زجاجها الماء وهو يتنهد : « ياه الساعة أربعة وميعاد التمام

قرّب » ، لكن آخر كان يستميت على التفاؤل وهو يتكلم بعصبية « لا لسّه عشر دقايق » . « قانونًا لسه عشر دقايق » وتلعثم أحدهم وهو يتس بحرص كأنه يخشى الانكشاف : « آ . أظن . أظن الناس برضه ما تخرّجش عيالها فى الشتا ده » وغمغموا بحزن مجيبون : « تقريبا . تقريبا »

ثم برز لهم المأمور يخرج من التكعيبة ويبدو شديد الانفعال وهو يصفق بغيظ ثم يشير اليهم بحدة ويتكلم كأنه يصرخ :

« يا اللا يا حضرات ع العنبر . . فسحتكم إنتهت والتمام ها يبدأ »

وراحوا يتلكأون وهم يهطون ، ذاهبين الى العنبر . . يتلكأون كأنهم ينتزعون أقدامهم الملتصقة بحديد الدرجات ، انتزاعًا يؤلم .

الحــرب

« تم . تم . تم . طم »

جاءت نسمة الصبح بإيقاع الطبلة . . سمعت أنا ، وسمع أبو الروس ، فسألته فرحا :

ـ حرب ؟

كان راقدا ببطنه على فرع عال فى شجرة « كوز اللبن » ، وكنت تحت الشجرة أجمع الأكواز التى يقطفها وأعبئها فى صفائح صغيرة صدئة . راح يزيح تكاثف الأوراق العريضة الخضراء أمامه ، ومن الثغرة التى فتحها نظر ، وأجاب :

ـ حـــرب .

عرفت أنه أطلّ على المنظر من فوق حيث رأى : العربة الصقيلة التى تحمل التابوت ، والجياد ، والرجال المشيعين ، وعيال ملجأ

القبط فى ذيل الجنازة وقد انتظموا فى الطوابير الثلاثة وهم يرتدون البذلات الكحلية ذات الشرائط الساتان الحمراء على الجنبين .. خطواتهم منضبطة وهم يمسكون بآلات الموسيقى النحاسية ، يعزفون ، وعيونهم تتوتر .. تدور فى كل الاتجاهات وتستقر على الأجناب حيث تكون هناك عيون ترقبهم .

كنا ـ نحن عيال المسلمين الذين يسكنون حى المقابر القديمة ـ نقف هناك والجنازة تمر أمامنا ، أيادينا وراء ظهورنا ، والطوب يغفو فى خبء الأيادى ، ونعرف أنه معهم أيضا فى خبء جيوب السترات الكحلية وتجاويف الأبواق النحاس . وإذ يدخل الكبار التُرب حيث يبقى عيال الملجأ فى الخارج تنتهى لحظات الهدنة ..

تسكت الطبلة ، وتتكتم أبواق النحاس ، ونجأر جميعا بصيحة الحرب :

ـ « هـا ! ! ! ! ! ! .. أهـا ! ! ! ! »

تنطلق قذائف الطوب والظلط من فوهات مدافع الأيادى ، نتبادل الكر والفر ، ونخشى الأسر كما يخشونه ، ونعمد إلى الإغاظة كلما تعبت أيادينا :

ـ « كيريا كيريا يا ليسون
حنا وجرجس فى الكانون »

وهم مثلنا إلى الإغاظة يعمدون ، رداً ، أو تعباً :

ـ « شد العمة شد
تحت العمة قرد »

كنت أحب ذلك التبارى الذى لم أتوقف أبدا ـ ولو للحظة ـ أمام دافعه ، وكان مكانى هناك ـ كأنما ورثته يوم تعلمت الوقوف ـ عند الأجناب ، فسألت أبا الروس لو نذهب الى الحرب ونترك أكواز اللبن لوقت آخر ، لكنه رفض بطقطقة مستهزئة من فمه ، وأخفض رأسه الكبير الذى يشبه الشمامة ، وطرفت عيناه النقرتان ..

قال يكلمنى وأنا مدهوش :

ـ « بالك .. القبط يا خدوا كل حاجة معاهم التربة لما يموتوا »
لقد كنت أريد الذهاب الى « الحرب » وكفى ، هذا كل ما فى الأمر ، لكنه أشاح بوجهه وراح يتكلم عن أشياء غريبة ، فرددت عليه وأنا مغتاظ :

ـ كذب فى كذب .

انتفض ورمانى بأحد أكواز اللبن ليقع الكوز بطرفه المدبب على رأسى ، فرحت أفرغ الصفائح مسعورا وأقذفه .

عندما جاء أحد الاكواز فى دماغه ـ قرب العين ، رقّص وتكور وجعل يغرغر ويزوم ، ثم أخذ فى الزحف نازلا كقرد مغتاظ ، وكانت الشجرة (تتهزهز) تحته .

قدمت ساقا على ساق ، وشرعت يدى متحفزا ، ولا أذكر أنى أحسست فجأة بألم فى بطنى ، وسمعت صوتى يصرخ ، ثم إن أبا الروس كان يدور مثل الغزال قبل أن يهوى وأنا معه ، وأذكر بعض التقلب فى التراب . وركبته بمشقة . ولم أهنأ راكبا وهو يبزق ترابا تحتى ويقول :

ـ « انت ح تروح النار .. نحاس للقبط تروح النار .. »

تراخت يداى وقمت عنه ، فغدرق برفسة فى ركبتى ولم أردها رغم أنه كان مسطوحا على ظهره ومكشوفا أمامى . كنت خائفا ، تنبثق أمام عينى صور متأججة لنار حمراء ، وسيخ حديدى محمى يخترقنى ، وأحد الزبانية يقلونى على النار .. أصرخ من ألم الحريق وما من مجيب غير صوت يرعد :

ـ « لاجل تبطل نحاسى للقبط يا بن فاطمة .. لاجل تبطل نحاسى للقبط »

كانت أمى تقول لى ، حتى أسمع كلامها وأطيع .. ، كانت تقول :

ـ « إسمع كلامى لاجل أتشفع لك .. دا كل واحد يوم القيامة ينادوه بإسم أمه »

وظلت صورة النار تلبثنى بإرهاب ، لكننى عندما انحنيت أجمع الأكواز التى تبعثرت ، جاءتنى الفكرة ، فزعقت بها فرحا :

ـ هاه يابو الروس يا ضلالى .. أنا اسمى محمد .. اسم محمد حبيب الله ما يعديش عالنار يا ضلالى .

لكنه أحبطنى فى دقيقتها ، إذ مط شفتيه الغليظتين يصدر صوتا قبيحا ، ويقول باستهزاء :

ـ « هىء .. كلام عيال يابنى .. يابنى .. نحاس للقبط ، تروح النار .. انشالله تكون الشيخ حسين ذات نفسه »

ماذا أفعل ؟ ! رقت الكلام لأبى الروس الذى تبدى شاهداً رهيبا على خطيئتى وقلت وقد عاودنى الخوف :

ـ اياك تكدب يابو الروس .. حرام عليك تدخلنى النار .. أنا

ما حاميتش للقبط ، انت بتكدب يابو الروس .. بتكدب انت .. »

وأقبل نحوى باسطا كفه اليمنى ليضعها فى كفى ، فصالبت ذراعى على صدرى بتردد .

اقتربت ببطء جاد ، ومد يده ، يقول بجدية :

ـ « عهد مين ده ؟ »

أعطيته يدى اليمنى ، ورددت :

ـ عهد اللـه .

أخذ يدى ، وأخذت أذرعنا تهتز على ايقاع ما ينطق :

ـ « وعهد الله .. وعهد الله .. وعهد الله أبو أربعة وأربعين يمين .. أقول الحق .. إنّ شفت حسن ابن بائعه السوده .. ومعاه صليب دهب فى دهب .. جابة من ترب القبط »

انفصلت أكفنا عندما سكت ، ولم أجد لدى ما أقوله . وكانت صيحات الحرب تتناهى إلينا من بعيد لكننا مضينا نحمل بضاعتنا ـ العلب الصفيح وبها أكواز اللبن ـ نقصد شارع العطارين ، لنبيع للنسوة الحبالى : الصفيحة بقرش .

كنا نسمع أنهن يأخذن الثمرات الخضراء التى تشبه أقماع البامية ، يكسرنها على بطونهن المنتفخة ، فيسال السائل الحليبى من بين شقوق الثمرات المكسرة على استدارات البطون .. وعند الولادة ، يضعن عيالا بيضا خضر العيون بفعل سحر يكمن فى هذه الأكواز .

هكذا كنا نسمع ، كنا نسمع هكذا . وكان أبو الروس يهم بالكلام فجأة ثم يتوقف .

٢

بعنا بضاعتنا كلها للنسوة الحبالى فى شارع العطارين ، وبعشرة قروش كاملة . .

اقتسمنا القروش بالتساوى فى البداية ، لكن أبا الروس غالطنى بعد ذلك ، وأغار على قرش من قروشى . اشترينا ترمساً ، وحمصا ، وشُقق فول بالدقّة الحمرا ، وعلبة بالسمسم ، ثم أخذنا نتسكع . .

مررنا بكل السينمات ، وأمام سينما « ركس » توقفنا طويلا . . على الواجهة بهرتنا صورة « الشجيع » يركب حصاناً ، ويمسك بمسدس لامع ، وحول وسطه حزام « رصاص فى رصاص » . تمنينا أن ندخل لنرى « الشجيع » وهو يطارد العصابة ، ويرديها واحداً وراء واحد بمسدسه ، ولم تكن قروشنا لتكفى . . كان الباقى معنا نحن الاثنين قرشا واحدا .

وشوشنى أبو الروس بكلام كثير كثير ، وكنت مبهوتا ، وشعرت بأذنى رخوتين ، واتفقنا أن نتقابل بالليل ، ونذهب الى « ترب القبط » .

أخذ يطن فى رأسى السؤال : هل الشجيع الذى نحبه مسلم أم قبطى ، وكنت خائفا لو أسأل أبا الروس فيفزعنى من جديد . .

وفى الطريق . . اشترينا بالقرش . . شمعة ! . .

٣

فى بيتنا عندما نبشت الكراكيب التى تحت السرير ، وجدت عتلة حديدية معطلة وسنجة ميزان .

خبأت العتلة فى رجل بنطلونى ، ولففت السنجة فى ورقة ، ووقفت على السطح أنتظر ، حتى نزل الليل . كنت جزعا ، ومُثارا ، ورأيت السماء السوداء شديدة البعد ومجوفة ، وكانت النجوم تبضّ خلالها وتأخذ فى الارتعاش ، فأخذت أحاول عدها .

- « فيت . فيت . فيت . »

هكذا جاءتنى الإشارة : صفارته الرفيعة الملحوسة . . عندما سمعتها خطوت بحذر الى حافة السطح ، ونظرت الى أسفل . كان هناك فى الوسعاية أمام البيوت ملتفا بالظلمة ، ولم أميزه إلا بشبح رأسه الكبير يتأرجح على قامته الربعة المدكوكة .

أعطيته الاشارة أنا الآخر :

- فيت . فيت . فيت .

ونزلت اليه . . .

كانت الشمعة معه ، ومعه علبة كبريت جلبهما من بيتهم ، ورأيت على كتفه جوالا مطويا . . عندما سألته عنه ، تحسسه بهدوء ، ومال على أذنى يهمس :

ـ « ح ثلاه دهب . . دهب فى دهب . من ترب القبط »

خلفنا البيوت وراء ظهورنا ونحن نجتاز الوسعاية ، دون صوت . . الى الترب .

كنت أتلفت ورائى ، وكل نظرة الى شباك به ضوء كانت تساوى هدهدة قطعة من ارتياب ، فى وشيش مُلغز ، وظلمة تحدق بمجاهيل مرعبة ، ونحن نتوغل . . . ونحن نتوغل .

٤

درنا فى الطريق حول تربنا : جبانة المسلمين ، وفى العتمة شفت الترب الصغيرة بحدباتها المقصومة الظهور وشواهدها الناتئة . . ، شفتها جمالا مسخوطة ساكنة . . حيث الحدبات سناما كانت ، وكانت الشواهد رقابا وروؤسا تحجرت . وشفت المدافن الكبيرة شياطين ضخاما تعتلى الجمال المسخوطة ، والكافور والنخل المتمايل حولها شفته جنيات ترقص مثنية لتبهج الشياطين .

وفى كل لحظة ، فى كل لحظة ، كنت أتلفت مذعورا لأقل صوت يصدر ، حاسبا أن عفريتا سيطلع من بين القبور ويخطفنى من ظهرى ، فتسرع قدماى ، تسرع ، وأتعثر ، وأقترب من أبى الروس أتلمسه لعله يؤنسنى ، لكنه يمعن فى تخويفى رغم خوفه هو الآخر وارتعاشه . . كان يقهقه بافتعال ، ويصرخ منشدا :

« يا عفريت إطلع لنا
شدنا من شعرنا »

وكان أبو الروس خائفا ، ويرتعش هو الآخر ، وإن أنكر .

٥

وصلنا الى سور « ترب القبط » . .

توقفنا نلهث متواجهين ، ونترامق بصعوبة فى العتمة ، ثم توشوشنا ، وبدأنا نتسلق . . رفعته أولا على كتفى وكان ثقيلا كحجر ، ثم أخذت أدفعه من مؤخرته وعقبيه وهو يتسلق ، حتى أصبح فوق السور . نام ببطنه على السور ، وانثنى يمد ذراعه لى ، فصعدت بتعثر حتى لامست يدى يده ، وشدنى .

ومن فوق السور ، هبطنا إلى الداخل . . .

عندما استقرت قدماى على الأرض حل الاستغراب بمكان الفزع الذى اعترانى منذ اتفقنا أمام سينما « ركس » ، والذى كنت أعد له ضربات قلبى لتسرع مقدما .

استغربت ! .

كنت أتخيل « ترب القبط » جنينة واسعة تقوم فيها بنايات عالية من رخام ، يحوطها شجر ونخل وورد ! .

ربما استقرت هذه الصورة فى ذهنى بعد رؤيتى المتكررة لجنازات القبط ، التى تختلف عن « المشهد » الذى نشيّع به نحن المسلمين موتانا . . . حيث بدلا من « الخشبة » المحمولة على الأكتاف ،

يكون صندوقا من الخشب الملمّع تحمله سيارة سوداء منقوشة بالذهبي وعند كل ركن من أركان سقفها يقبع تحت ملاك ذهبي طائر بجناحين مذهبين أيضا .

استغرقت مستغربا وأنا أطوف بعيني ترب القبط .. رأيتها ، تماما ، مثل تربنا نحن المسلمين .. تماما ، رأيتها : مدافن كبيرة قليلة تشمخ ، وسط ركام الترب الواطئة .. لا فرق غير أن الشواهد تقوم بدلها الصلبان ، وحتى الصلبان : إما كبيرة مزخرفة وبعضها منوّر فوق المدافن الكبيرة ، أو صغيرة حالكة أكثرها مكسّر فوق الترب الصغيرة التى ليس حولها شجر ولا نخل ولا ورد .. بل تماما مثل ترب المسلمين الصغيرة ، ولصقها ، رأيت ذات الفسائل لنبات الصبار الداكن المغبر تلوح نابتة فى العتمة .

ـ « يا الله يله .. احنا مش جايين هنا علشان نقف نبرق لبعض »

قالها ، (وزغدنى) أبو الروس ، فارتجفت ، وسرت أتبعه ، وهو يقودنى ، ونجوس .

٦

توقفنا أمام مدفن كبير ، كان عاليا وجدرانه باردة وناعمة وله باب حديدى مصفح بقضبان من النيكل

أخذ أبو الروس يحاول ادارة الأكرة الكبيرة التى تبرق ، لكن يديه كانتا تنزلقان ..

حاولت أنا ، فلم أفلح ..

حاول أبو الروس فتح الباب بالعتلة ، ولم يستطع .

وحاولنا بالعتلة معا ، ويئسنا .

جربنا مع أبواب مدافن كبيرة أخرى ، لكنها جميعا كانت موصدة بإحكام ، وأكراتها تبرق وتنزلق عليها أيادينا ، وفى فرجاتها الدقيقة كانت عتلتنا الحديدية المطلطة تُشل .

كانت العتلة تسقط منا على عتبات المدافن الكبيرة ، فتصدر رنينا .. ، مخوفا يترجّع خلفه صدى رائق ، فخم ، يرعب ، يأتى من داخل مبطن بالنحاس والرخام .

بدأ الخوف يغرقنى ، فانتحيت أهمس بتوسل فى أذن أبى الروس :

ـ يا الله نرجع ياعم .. أنا مش عايز دهب ولا نيلة .

لكنه كأنما لم يسمع ، ساقنى نحو الترب الصغيرة ، وعندها قرفص .. ، قرفص وراح يزحف على أربع ويتحسس الفوهات المسدودة .

توقف فجأة عن الزحف ، وزعق ينادينى :

ـ « تعاله يله .. دى طرية .. نقدر نفتحها » .

كنت خائفا مما يحدث ، وخائفا أكثر لو أبدو جبانا لأبى الروس فيفضحنى عند « عيال الحتة » فأخذت أناوله ما يطلب وقد سيطر علّ .

- « العتلة والسنجة ياله » .

وناولته العتلة والسنجة ، فأخذ ينقب الفوهة المسدودة .

- « شيل بضوافرك ياله » .

وأخذت أخمش بأظافرى كتلة من أسمنت ما زال مبتلا ، يتهال ، ويتكوم على الأرض .

- « زيح ده ياله » .

وأزحت كومة الأسمنت الصغيرة .

أخذ أبو الروس يضرب برأس العتلة ، فسقط قالبا طوب فى الداخل ، وتكونت فتحة مظلمة أخذ يوسعها . . . يوسع ، يوسع ، يوسع ، ثم زحف ودخل .

نشف عودى ، وتلجت وأنا أتابعه يختفى داخل التربة الصغيرة .

- « ولع الشمعة وتعال ياله » .

أشعلت عود (كبريت) ، انطفأ بفعل إرتعاشى ، وعوداً ثانيا ، وثالثا ، واشتعلت الشمعة . وعلى ضوء قطعة اللهب الصغيرة ، رأيت الأرض الطينية زلقةً كأنما يشع أديم من ماتوا ، ورأيت الغبار الداكن المعفر ، ولقمة مهروسة يجرها النمل نحو ثقب فى جدار التربة . زحفت ، ودخلت كأنما شيء غير نفسى يجرنى .

كان سقف التربة يلمس الرأس ، واطئا ، ومقبّىً ، ومبنيا بجفاء ، تبط بين أحجاره المتآكلة كتل غليظة من المونة .

وكان أبو الروس جالسا على ركبتيه ، واضعا يديه على ظهر تابوت خشبى منفسخ الألواح ، ودهانه الأسود كان مقشوراً وكالحاً .

- « هات العتلة ياله » .

وبيد مرتعشة ناولت العتلة لأبى الروس .

- « يابا ! ! » . » .

صرخت بلا شعور ، إذ . . فى قعر التابوت رأيت جثة حديثة لرجل نحيف ، فى قميص من الدمور وبنطلون رمادى قديم من قماش « جبردين العسكرى » . . قميص عليه بقع « بوية » . . قميص نقاش ، وبنطلون نقاش واسع وثنية الرجل كانت مفرودة لتطول .

وجه الرجل كان شاحبا بزرقة ، ولحيته نصف محلوقة ينبت فيها شعر أشيب . . كان مغمضا عينيه فى نعاسة وبدا لى زعلان ، وبقلبه حسرة .

عندما رفع أبو الروس يدى الرجل يبحث عن « الخواتم الذهب » ، رأيت يد الرجل عريانة ومعظّمة وأطراف الأصابع مكلومة ، وحول الأظافر كانت رواسب الجير تتوغل داخله فى الجلد المتهرئ .

فتش أبو الروس فى جيوب الرجل ، وكانت خالية ، فغمغم ، وأخذ يحرقنى بنظرة مغلولة ، ثم لطمنى . . لطمنى وهو يصرف على أسنانه ، ويقول :

- « وشك نحس ياله » .

وكأنما كنت فى انتظار اللطمة . .

التقطت العتلة ، وضربته بها على بوزه فانفجر دماً غامقا ، وطرت أهرب . خرجت من التربة ، وقطعت « ترب القبط » ، وقفزت السور ، ثم « ترب المسلمين » ، والوسعاية . . .

كأنما كل هذا فى غمضة عين . . . ، غمضة عين كنت أسمع خلالها دبيب قدمى أبى الروس يلحقنى .

٧

وصلت إلى بيتنا ، ودخلت ، ثم رددت الباب بظهرى حتى لا يفتحه . .

وأخذ بدنى الصغير ، يومها ، يذوب بلوعة ، فى موجة من بكاء حارق . . لم أكن أعرف كنهة .

والأمر الغريب أنه كلما كان يعلونى موج البكاء ، كنت لا أكره أبا الروس ، بل أشتاق إلى أبى لو يأتى حالا لأتعلق برقبته . . ألصق خدى بذقنه الخشنة ، ولا أتركه أبدا يغيب .

الموت يضحك

بووم م م . . . ويبدأ أن شيئا ما قد انفجر . أو على الأقل قلبت القطط صفيحة القمامة وتجسم الصوت في هدأة منتصف الليل . وكان حسين هو اليقظان الوحيد يقرأ مطلا برأسه ويديه من تحت اللحاف القديم الملتمع الحواف بالسواد . كان البرد شديداً بين جدران البيت شبه العارية وأرضية البلاط المحفور والسقف متساقط الطلاء . كانت مثانة حسين توجعه ومع ذلك يؤجل الذهاب إلى دورة المياه دائماً إلى اللحظة التالية . وقرر أنه عندما يذهب إلى الدورة سيرى ماذا حدث وسيعدل صفيحة القمامة ويطرد القطط ثم يغلق باب الشقة . لكن صوت أمه أتى من الحجرة المجاورة : « يا مصطفى أيه اللي وقع يا مصطفى ؟ » . كانت تنادي أخاه الأصغر . فيتأكد مرة

أخرى ، بعد مئات المرات ، أن هذه المرأة النحيفة القلقة لا تعس أبداً . لو على الأقل تسمع كل شيء وهي نائمة . وعاجل بالرد حتى يعيدها إلى نومها الخفيف : « مفيش حاجة يا امه . دى القطط . نامى . نامى » لكنه وهو يردد هذه الكلمات شعر بشكل غامض أن الصوت كان أضخم من صوت صفيحة قمامة توقعها القطط في منتصف الليل . وكانت مثانته قد بدأت تؤلمه من جديد ، بعد أن استراحت متمددة لتأخذ أقصى سعة لها . فقرر دفعة واحدة أن ينهض لينهى كل شيء . هذا الألم ، ويرى كيف أحدثت صفيحة القمامة كل هذا الدوى . .

نفض عنه دفء اللحاف ، ومتقلصاً وثب على البلاط البارد ثم أسرع على أطراف أصابع قدميه وكعبيه الملسوعين بالبرد يلتقط شيئاً ينتعله ، ومقفقفاً فتح باب الحجرة . . رأى الظلمة في الصالة ثم أحس بتغيير ما في النور القادم من جهة الحمام والمطبخ . في البداية شعر بشيء يضايق أنفاسه ثم تيقن من أن النور القادم من جهة الحمام والمطبخ مثقل بالغبار . خطا بحرص غريزى وفي حلق طرقة الحمام والمطبخ لم يتمكن من رؤية شيء . كان المكان يعبق بالتراب . كأن قنبلة سقطت عليه لتوها وأثارت كل هذا التراب الذى كان يدوّم ببطء في فراغ المكان الصغير بين الجدران التى بدت أقدم من أن تكون هي جدران بيتهم الذى يعرفه . ثم وكأنه يعتاد الرؤية في قلب زوبعة التراب ، مثلما يعتاد المرء شيئاً فشيئاً الإبصار في الظلمة ، رأى كومة الأنقاض على بعد خطوة من قدميه ورفع وجهه ببطء ،

بحسرة ذاهلة كمن يتأكد من شيء مخيف يوقن في وجوده ، وأبصر حديد سقف المكان عارياً وصدئاً ، وممزقاً كشبكة من خيوط واهية خلفها سماء الليل . . رأى السواد الرمادى لليل الشتاء المطل بلا نجوم من سقف الحمام والطرقة والمطبخ . وأيقن أن البيت كله سينهار الآن . واستغرب هذا الهدوء الخامد الذى يثقل جسمه ويجعله يتراجع بطيئاً بظهره نحو الصالة . . خطوة خطوة ، ومع كل خطوة يتلمس برد الحيطان بقربه والأشياء . وبإرادة غريزية يوقد الأنوار وهو يتراجع . نور الطرقة . نور الصالة الصغير . نور الصالة الكبير ، وكان الغبار ينتشر الآن وقد ملأ البيت كله . وبمرح لاإرادى مفاجيء وجد نفسه يصفق وينادى : « اصحوا يا حلوين . الموت وصل »

* *

وقفوا جميعاً في الصالة بأقدام عارية ، أو بقدم عارية وأخرى وجدت ما تلتقطه في طريقها المرتبك . دعكوا عيونهم من شدة تهييج الغبار للجفون في البداية وعطسوا وتحشرجوا مرات . ثم بدأوا يعتادون التنفس في هذا الوضع بينما كان التراب نفسه يخمد ويتضح كل شيء . في أول الأمر استيقظ مصطفى بعيونه المستغربة المفزوعة وفمه الذى يصنع علامة استفهام تثير الروح قبل أن تدركها أية إجابة . ثم جاءت من ظلام غرفة الواجهة عفاف بقميص نومها ومنديل الرأس . ثم استيقظت الأم المروعة دائماً ، والتى كانت تسمع لسنين طويلة صوت الخطر المنذر في

الجدران والسقف يتمطى بطقطقات خافتة لا يستقبلها إلا جهاز عصبى شديد التوتر مثل جهازها . وفى النهاية أخذ الأب العجوز يبرز بطيئاً من ظلمة غرفته الصغيرة . محنياً ويابساً ويجرجر نصفه المشلول بتعثر . وبدا حسين كالمايسترو بينهم . كأنه يستخرج منهم نغمة خفية ومتأهبة للطقو مع ذلك . وبشكل سلس لم يكن هو نفسه يظن أنه مهيأ له . وكان مصطفى أول من استجاب . .

فما أن برز بفزعه المفرح لمن يراه حتى بادره حسين : « إيه يا . . . البيت بيقع . بيتنا بيقع . فيها أيه دى ؟ » . وكانت عفاف بمرحها الفطرى مهيأة لتلقى الاشارة حتى قبل صدورها ، قالت بصوتها الفسحى الخفيض والمسموع مع ذلك : « الله . . . ودا كلام يا بيتنا ؟ ودا وقته ؟ ورانا امتحانات يا أخى . وعايزين نتام » . الأم وحدها هى التى بدت أكثر ترويعاً لكنها مالبثت أن بدأت فى الابتسام رغم رعبها الذى لم يتلاش . أما الأب فقد كان فى تفكك الشيخوخة المكرة السهل جاهزاً على الفور للاستجابة للبشر . . أخذ يضحك ضحكاً تصلب شرايين المخ المرتج هذا ، الذى يبدو كأنه لا يُقاوم . كأنه طفل عجوز يدغدغه شخص ما لايرى . أخذ يضحك وحسين يقوده فى هذه اللحظة . . يسلم عليه الآن بجدية ضاحكة واهية مضحكة الخطورة : « سلامو عليكم يا معلم . خلينا نشوفك هناك . هناك شباب طبعاً . شباب على طول » . وسمع صوت عفاف وهى تقلب القاف كافاً وتغنى : « إلى اللكاء . يا أصدكائى » . وبدوا رغم عددهم القليل كأنهم زحام من البشر فى الصالة

العابقة بالغبار إذ كانوا فى حراك دائب وضحك وجلبة . كانوا حسبتهم يتبادلون السلام والتوديع ويعودون إلى ذلك من جديد كأنهم يشنعون فى حلبة ما : « سلامو عليكم يا أمه . ابقى حبى علبة الملوخية الناشفة معاكى وكام عقد بامية » . « حاجه بيلاش كده » . « المعلم بيسبقنا على جنة الخلد طبعاً واحنا نحصله » . « ما تعيش علينا » . وكانت جلبتهم تعلو ، تعلو حتى أنهم فجأة سكتوا .

* *

وجعوا لبضع دقائق . . بضع دقائق فى آخر الليل ، وفى نور الصالة الغامر ، سمعوا فيها كل شىء ورأوا . . سمعوا طقطقة الجدران مع مرور اللوريات ذات المقطورات فى الشارع العمومى ، وأحسوا بالرجة . . كأن البيت يعوم فعلاً فى بركة من المياه الجوفية أو مياه المجارى . رأوا تشرخ السقف مربعات ومستطيلات واسعة يرسمها صدأ الحديد فى بياض المصيص المتقادم المصفر . كل السقف . . فى الغرف الست التى كانت ثلاثاً قسمت بجدران ربع طوبة لتحمل السقف المنذر بالانهيار منذ عشر سنوات خلت ، لكنه الآن يبدأ الانهيار بالفعل . فعلها فى الحمام والمطبخ منذ لحظات والبقية تأتى . وقد تكون دفعة واحدة ، حيث لا إمكانية لديهم ، أصغر إمكانية ، لمجرد ترميمه . . قالت الأم : « ننزل الشارع يا أولاد » . ولابد أنهم تخيلوا منظرهم فى الشارع . . عشة من الملاءات والبطاطين

القديمة لصق سور الجراج العمومى .. الحلل والبوتاجاز والثلاجة أمام الباب . والكتب فوق الثلاجة . والملابس على مشاجب من مسامير يدقونها فى الحائط بجانبهم . كانت عفاف قد ذهبت وفتحت باب البلكونة ولفعتهم هبة من البرد عرفوا منها صقيع الشارع قبل أن تأتى عفاف وتفتتح الضحك من جديد : « حاجة الاسكا خالص . حاجة آخر الاسكا . وتتشى كمان » . ودخل مصطفى فى خط الضحك : « أيه الهنا اللى احنا فيه ده ؟ » . وكأنما أيقظت كلمة « الهنا » كوامن نفس الأم مزمنة الحزن فانفجرت تبكى . وراحوا يمطرونها بمحاولات الاضحاك : « أية يا حاجة . صعبان عليكى تسبى كتاكيتك » .

وجرى مصطفى بساقيه الطويلتين وأحضر صندوق الكتاكيت من السور الجوانى مردداً « والله ما يحصل . والله ما يحصل » ، وانحنى حسين على الصندوق المغطى بخرقة قديمة حيث وضعه مصطفى على كنبة الصالة ، وكانت الكتاكيت تصوصو بتسارع مروعة من بغتة ايقاظها فجأة . وقال حسين سامعة ؟ بتقول : « سوا . سوا . سوا . سوا » . وأرفت عفاف بخطابية مضحكة وهى تشد قرطتها على جبينها حتى العينين « وفاء . يا للوفاء . وفاء الحيوان يا بنى آدم » . وبدا للحظة أن وجه الأب يتلون مع ايقاع الكلام . يضحك عندما يرى ويسمع الضحك ويتمحى ضحكه عندما يرى الوجوم . بات هامشياً إلى حد موجع بعد أن استيقظ من غيبوبة جلطة المخ المفاجئة ، منذ سنوات . انزوى ساكناً وأنزوت معه كفاية البيت . وها هو البيت يرتج مع مرور

اللوريات الثقيلة فى الشارع العمومى . كانت المياه تهتز فى الدورق الزجاجى الموضوع على طرابيزة الصالة ، ولاحظت الأم ذلك بانقباض وهى توشك على البكاء : « هانموت يا اولاد . دى الميه بتتهز كأن حد بيرجها » . لكن حسين عاد يمسك بخيط الضحك وهو يميل على الدورق ، ويلمس فوهته ناظراً إلى الماء المرتج فيه كأنه يكلمه : « هز ياوز جناحك هز . احنا اتنين عايشين فى العز » . لكن عفاف عقبت بتحفظ كاتم للضحك : « احنا خمسة يا أستاذ من فضلك . خمسة فى عين اللى ما يصلى على النبى آه خمسة » . ومس الرقم سطح ذاكرة الأب الواهنة ، ذاكرة تصلب الشرايين المبكر ، وقال بحماس من عثر على كنز « خمسة . احنا خمسة . نروح كلنا كده من طلعة النهار للمحافظ يشوف لنا حل » وصاح مصطفى بصوته الذى لا يعرف النغمة المطلوبة أحياناً ويبدو أعلى مما يجب « معلهـ . لا . والله معلم تدبل الورقة وتفصل زحتها فيها صحيح . أيوه نروح كلنا كده بربطة المعلم للمحافظ من طلعة النهار . دا إذا طلع علينا النهار » وقالت عفاف « طابور . نروح طابور » . وأضاف حسين لمسته الأخيرة : « ونقول له احنا ما تنفعناش شقة المساكن الشعبية اللى مقدمين عليها من عشر سنين . احنا عايزين فيللا فى الهرم . أو طريق المعادى من فضلك »

● ●

كان الليل يمضى ببطء شديد ، ثقيل السواد ، عندما أووا إلى أسرتهم أخيراً .. ومع ذلك لم يفلح النوم فى التسلل إلى مخادعهم

اليابسة » . المراتب القديمة المهروسة تحت جنوبهم تكاد تصل أضلاعهم بألواح الأسرّة الخشبية المتباعدة . والوسائد تصلبت من بعاد التنجيد عشر سنين خلت . تركوا نور الحمام وحده ، ومع العتمة لم يناموا . . برز صوت مصطفى المرتفع أولاً ، آتيا من نصف غرفته قرب المدخل : « اللقا يوم اللقا يا حلوين » . وردت عفاف : « كل واحد يبعت عنوانه للتانى لما يوصل » .

واخذوا يتحادثون بأصوات مرتفعة من مراقدهم ، وعبر الظلام الذى يرمده غبار السقف المنهار . ثم إنهم بدأوا يتوادعون : « سلامو عليكم نتى » ـ قال مصطفى ، وردت عفاف : « باى باى » وقال حسين : « نشوفكم بخير هناك » . وبدا أن البيت يسكن سكونه المريب قبيل الانهيار . أحس حسين بأن سقف الغرفة سينهار عليه . وشعر بارتباك المرعوب الذى يسدد إليه أحدهم فوهة بندقية معمرة باتجاه عينيه . وجد نفسه يغمض ويسرع بشد اللحاف على وجهه متفكراً فى أن السقف عندما ينهار سيدخل التراب والرمل فى عينيه وحلقه . وربما أصابت كتلة خرسانية رأسه أو هذه المنطقة الحساسة من جسده ، حيث يمكن أن يعيش مشلولاً أو عاجزاً . تكور على نفسه نائماً على الجنب تحت الغطاء مفضلا الموت الكامل بالاختناق عن الحياة بعاهة مستديمة . وفكر فى الآخرين . . لماذا لا ينقل إليهم فكرته هذه ؟ وخرج برأسه من تحت الغطاء ، ونادى : « كل واحد يغطى نفسه كويس علشان يغطس على طول بدل ما تطول معاه ومايبقاش طريقة » . وأتى صوت عفاف مقلداً صوت الطفل فى

ذلك الاعلان التليفزيونى : « كنت ح أقولها » . واشتد صوت مصطفى الذى أطلقه فى شكل زمارة : « وأنا كمااااان » . وتعالى صوت الضحك مرة أخرى ، لكن العجوزين لم يبد لهما صوت . . أى صوت فى هذه الجلبة ؟!

* *

كان حسين يحمل صندوق الكتاكيت ويتجه به فى أثر الضوء الخفيف المغبّر إلى حجرة الأم إذ ظل يجافيه النوم ، ونور الصبح يتثاقل ولا يجىء . وهو يوقن فى كونها لم تنم ، وإنما ملتفة على نفسها تبكى كاتمة صوت البكاء . بكاؤها هذا الحارق والمحرق لمن يسمعه أو يراه . سيقول لها مضاحكا : « خدى يا ستى كتاكيتك . مش عايزين يناموا ويقولوا إلا نروح معاها » . لكنه فى النور الخفيف وجد سريرها خاليا . وفى حجرة الأب كان سريره خاليا أيضا . . كاد حسين يزعق مناديا مصطفى وعفاف : « العواجيز سابونا وهربوا يا عيال » . لكنه وجد نفسه يقرفص وينظر بتوجس تحت حافة الملاءة المتدلية على السرير القديم العالى . وباندهاش لا يصدق وخجل وارتباك نهض وتراجع فى نفس الوقت حتى كاد أن يتعثر ويوقع صندوق الكتاكيت التى تعالت صوصواتها من رجة العثرة . وكانت الخرقة قد انزلقت عن فوهة الصندوق وبان حراك الكائنات الصغيرة الليمونية اللون تسعى مضطربة فى رجة الصندوق المعتم . فمال عليها يهمس : « س . س . س . . سكوووت . . عيب كده » . لكنه فرحى

بصوت عطاف مستيقظة : « بتكلم مين عندك ياأبيه ؟ » . . « ساكلم الكتاكيت يا بت » . وجاء صوت مصطفى : « آه الكتاكيت . صحيح كتاكيت . ربنا يديك الصحة يا عم » . وفى هذه المرة بدا ، وكأنهم يكتمون صوت الضحك

سائقة « ترولى »

لأن عينيه كانتا سوداوين وواسعتين كما يليق بعيون عربية ، فإن الدهشة فيهما كانت مدهشة وظريفة . وهى لم تكن مجرد سواقة ترولل . ترولل عادى . بل ترولل كبير بعربتين مفصلتين . ومائة وعشرين مقعداً . وستة أبواب مؤتمتة . وعشرات العدادات فى لوحة القيادة أمامها . وميكروفون كانت ترفعه بيسراها من فوق مشجب بجانبها . وتذيع عند فتح الأبواب :

« انتبهوا . الأبواب الآن تُفتح . هذه محطة كذا » . وعند غلقها : « احترسوا . الأبواب الآن تُغلق . المحطة القادمة . . كذا » . وكان صوتها لطيفاً حسبه فى أول الأمر مُسَجّلاً ويُذاع بطريقة أوتوماتيكية مع التحرك والوقفات . وظل يحسبه كذلك حتى بعد أن عرف ـ لدهشته البكر ـ بوجود نساء يسقن

الترولليات في هذا العالم .. لكنه أبصرهن من قبل نساء كالرجال .. أسطوات من نوع آخر : جسيمات وخشنات ولاشيء يذكر بأنوثتهن غير حقائب اليد النسائية التي يضعنها فوق « التابلوه » أو يعلقنها بجانبهن في كتف « كرسي السواق » ، ويلتقطنها في أذرعهن الثقيلة - كما تفعل الاناث - وهن يهبطن عند المحطات الأخيرة .

وظل يحسب صوتها اللطيف مسجلاً وهو لايتبينها من مقعده وسط المقاعد ، وهي وراء حاجز السواق الحاجب للرؤية رغم كونه من الزجاج . زجاج « الفيميه » ، الغامق اللامع الذي تطوحت عبره مرة يد وردية بيضاء . يد أنثوية رقيقة الأصابع ومزوقة بطلاء أظافر برتقالي وسوار تهتز في محيطه قلوب ذهبية متمتمة . لمع اهتزازاتها الخاطفة ، فانخطف ، وما أن خلا المقعد الأول في السخن حتى أسرع يحتله . وأسرعت تحتل مرايا عينيه المدهشتين الدهشة صورة سواقة ترولل صغيرة حلوة ، تسوق « ترولليا » كثيراً عبر شوارع كثيرة تتوالى تقاطعاتها ، تتوالى الإشارات ، وتتوالى المحطات . لكنه ينسى هذه المرة أن يهبط في محطته المعتادة . وهي تنسى أن تظل ناظرة أمامها إلى الدنيا عبر الزجاج الواسع العريض كما ينبغي ، وتتناسى أن تنبهه إلى كون المقعد الذي يحتله واحداً من مقاعد كبار السن ومصطحبي الأطفال ، وتلتفت إلى الخلف مرات خاطفة . تخطف بسماوية عينيها حالتي الزرقة دهشة مدهشة وطريفة في عينين سوداوين واسعتين مثلما يحكي عن عيون غريبة .

ولأن الصدفة لا تأتي في الغالب صدفة ، فإنهما وجدا نفسيهما يعبران نفس الغابة الصغيرة في قلب المدينة عدة مرات . في صمت أولى لا يخدشه إلا صوت اقدامهما ترفرف فوق الثلج . الثلج الأبيض يغطي بنصاعته أرض الغابة وتظل تخترقه جذوع أشجار الجوز السوداء والبتولا الكلكية المنقطة .. آلاف الأشجار العارية أغصانها من الأوراق واقفة في بياض الثلج . وهما بين الأشجار يتوقفان . ينطلق فوق هامات الشجر العاري وعلى صفحة السماء سرب حمام بدا بنفسجياً ، ثم سرب غربان قطيفية السواد تعقعق . ولم تكن أصواتها العجيبة الخرقاء هي التي أضحكته في لحظة لايجوز فيها الضحك . لقد ظلت عبارة « أنا الآن مع أسطى سواق ترولل » تترجع في داخله فيغالبه الضحك . تحاول كتمه لكن يغلبه الضحك . فتذعر .. تتسع عيناها الزرقاوان ، وتتسع خطواتها وهي تتراجع مبتعدة عنه تردد « كاذب . كاذب . كاذب » ثم استدارت تجري . هي تجري وهو يلاحقها بنداءاته .. تقع النداءات على الثلج ويعيق قدميه الثلج . لكن الثلج ينبسط لقدميها ، فيتوقف .. يرقب فرارها الباكي بأسف . وتقطعه حسرة أنه ربما يكون قد أضاع غزالة . غزالة ثلج كاد يتبقى من حالها وهي تفر أمامه في البياض مبتعدة . فهل يستسلم لفقدان غزالة على هذا النحو ؟ !

الترولل تضطرب حركته .. كأن يفقد شيئاً من نعومة سيره ، ونعومة الدوران والوقفان . بدا عصبياً وأخذ الركاب يتطلعون بذعر إلى الأمام نحو السائقة التي توقفت بغتة . برزت من وراء

حاجز الزجاج القائم الملتمع . واتجهت إلى الراكب الذى اعتادوه من قبل يجلس فى المقعد الأول عند اليمين . بيدها الوردية الصغيرة أخذت تلوح أمام عينيه السوداوين المتسعتين بدهشة أخرى . دهشة مأخوذة بالحدة التى فى التلويح ، والحدة التى فى الأمر تصرخ به فى وجهه : « عُد إلى الخلف الآن أيها السيد . من فضلك عد إلى الخلف » . وكأن لطمة الصفعة بمغناطيس قوته مائة وعشرين صوتاً راحت تجذبه إلى الخلف مرددة : « عد إلى الخلف أيها السيد . عد إلى الخلف . عد إلى الخلف .

وكان آخر الركاب الذين يهبطون فى المحطة الأخيرة . تلكأ لحظة قرب مقعدها واستدار ، ومال عليها يهمس سائلاً : « هل سأظل فى الخلف طويلاً ليمضى كل شىء على ما يرام ؟ » لكنها لم ترد ، ولم ترده . .

هل هى آخر تحية للورد ؟

ومع أول خطواته داخل ردهات المعهد الرخامية الصقيلة التي عاشرها طويلاً أحس بأن شيئا ما قد تغير ، وأنه لسبب لا يدريه صار في قلب التغيير . فماذا حدث خلال أيام ؟ وماذا حدث منه لينظروا إليه هكذا ؟ لقد كانت اجازة أول مايو طويلة نسبياً إذ وافق أول مايو يوم خميس ، ثم جاء الجمعة ليكون ثاني أيام العيد ، ومن بعد اليومين جاء السبت والأحد وهما يوما العطلة الأسبوعية المعتادة . أربعة أيام ، لم يحس بتغيير ما خلالها . . في حياته ولا في حياة الشوارع ولا حياة السكن الطلابي الذي يعيش فيه . صحيح أنه عرف بالخبر ، وكان يسمع الاذاعات . . يندهش لهذا الحريق الذي يشتعل في إذاعات أوربا الغربية وامريكا ، ويستريب في الحذر الإعلامي السوفيتي . لكنه قبل

الآن لم يكن يحس أن شيئاً ما قد تغير . فى نهاية ابريل كان انفعال الإذاعات قد بلغ الذروة . . عن كارثة حريق محطة « تشرنوبيل » الكهرو ذرية ، عن السحابة الذرية التى حملتها الرياح إلى أوربا . وعن المطر الملوث بالاشعاع الذى تساقط هنا وهناك . وعن الاشعاع الذى طال « كييف » القريبة من تشرنوبيل فأقفر فيها الحياة . وكان يعجب كيف أنه فى « كييف » ولا يحس بتغيير ما . . المدينة الحديقة مازالت كما هى . . خضرة الربيع التى تفجرت كأنما فجأة فى كل مكان . . زهور النسرين البيضاء العطرة ، وعناقيد زهيرات الكستناء ، وتوهج شجر الطوبال والبتولا بالخضرة . . « الدنيبر » الفسيح الممتلىء بقوة المياه المستيقظة من إغفاءة الشتاء ، والناس الذين تسمهم الطبيعة بميسم بشر يتنزهون فى حديقة . ثم احتفالات أول مايو نفسها حيث كانت الاذاعات تتأجج بذكر الكارثة الذرية . بينما كان كل شىء « هنا » - فى موقع الكارثة التى يتحدثون عنها لا ينبىء عن تغيير ما . . أدنى تغيير . احتفلوا بأول مايو مثلما كانوا يحتفلون من قبل . . قلب المدينة الذى خلت منه المركبات ليمشى الناس فى عرض الشوارع ، دفقات التجمعات البشرية التى تصب فى شارع « الكريشياتيك » المكسوة شرفات مبانيه بستطيلات القماش الأحمر فى لون التوليب ، وموسيقى الجيش التى تصدح فى كل مكان ، وصوت الكورس الرجالى المتناغم بسحر النحاس . قوة هارمونية كانت تخفق فى سماء الشارع الكبير وتتخلله ببهجة جسورة حتى أنه صار يتواثب فى مشيه ويحرك

ذراعيه مثل مايسترو مع ايقاع المارشات والأناشيد . . البنات بالفساتين الأوكرانية الخفيفة ذات الأطواق المشغولة حوافها بقزح ملون ومنمنم ، وأكاليل الزهر التى يتوجن بها رؤوسهن . الضحك الجميل والدلع والغزل المباح . نهر النساء المتدفق بالبشر ، والأرضية المثقلة بالحمام وزهو الهندباء والخضرة .
الأطفال فوق اكتاف الأباء والبالونات الكبيرة المرفرفة . فيونكات الشيفون الأبيض الكبيرة فى شعر البنات الصغيرات ، وبريق الميداليات والأوسمة على صدور الأبطال القدامى الذين خرجوا يرصعون على مهل مواكب الجموع المتحركة فى اتجاه ميدان النصر حيث سيتفجر العيد . حكام الجمهورية على منصة الميدان وفى القلب تحتشد قطاعات موسيقى الجيش وفرق الشعب . وتدق الساعات مالئة برنينها كل الفضاء . ثم يهتف المذيع بتحية « أول مايو » ، و . . . أورا!!! . . تتصاعد من حناجر المحتشدين الذين يرفعون أياديهم والقبعات والمناديل مع الصيحة المبتهجة . ويجن العيد . . الدوران الحراق للتنورات الأوكرانية على قدود البنات الراقصات والتواثب العفى لقوائم الرجال ذوى القمصان المزركشة والنطاقات والاحذية الطويلة . مقطوعات لا تعرف الجهامة ، وأطفال ورد الجر خدودهم فكأنها تشتعل . بالونات تحلق وبشر يتخاصرون بمرح . والهتاف لا ينقطع مع كل دفقة بشرية « أورا!!! » ، كان يترجمها هاتفا مع الهاتفين كطفل مصرى فى مولد : « هيه » ، فيشعر بمرح اللحظة الصبيانية ، ويتمادى فيها بلذة . . أورا . . هيه . فهل كان كل ذلك مجرد مظهر لشىء ما يخفيه القلب السوفيتى الذى يجيد الكتمان ؟ أم ماذا ؟

ماذا حدث ؟ هل ثمة شيء قد تغير في خلال أيام ؟ ولماذا يعاملونه هكذا ؟ المناوب العجوز وراء مكتبه عند المدخل لم يضاحكه ويضحك كعادته عندما يراه . لم يقل له هاتفاً بانبساط ككل مرة : « السلامو اليكوم » ، بل تنهد في أسى ، وهز رأسه بإيماءة فيها من العتاب أكثر مما فيها من تحية . ثم إنهم كانوا يتوقفون في الردهات ويتابعونه بعيونهم للحظة قبل أن ينتبهوا إلى غرابة مسلكهم ويعاودون سيرهم من جديد . وفي طابور الأسانسير التفتوا إليه معاً حتى بدا كأنهم يلتفتون بأمر خفي صدر إليهم في لحظة واحدة . وفي صمت الصعود الكتوم لغرفة المصعد جوزية الجدران خافتة الضوء فكر في إنها الآن ، استاذته « يلينا بتروفنا » ، في قاعة اللغة الروسية تنتظره ليبدأ الدرس . . مثلما في كل مرة وحدها في الغرفة الكبيرة ، بملابسها الرصينة ، وهدوء جدة في الخامسة والأربعين . نظارة القراءة على الطاولة الصقيلة ، وابتسامتها الأمومية . والحديث الذي يبدأ بينهما ككل مرة في اعقاب العطلات . . عن صحته ومعنوياته وعما إذا كان قد استمتع بأيام العطلة أم لا . وقرر أن يسألها هو هذه المرة .

* *

أوشك أن يتراجع ويغلق الباب حاسباً أنه أخطأ غرفتها إذ صدمه مرأى هذا العدد الكبير من البنات حول الطاولة ، والوجوه التي التفتت إليه كأنها كانت في انتظاره . لكنها كانت هناك - ليناتروفنا - في مكانها المعتاد على الطاولة . ووقع في حرج

للحظة ساد خلالها الصمت . ثم انتبه إلى أنه هو الذي ينبغي عليه أن يلقي التحية . « تحياتي » قالها وسمع ردود التحية الخافتة منهن . وكان هناك مقعدان خاليان بقربه حول الطاولة . سحب أحدهما وخلع « الجاكت » كما يفعل في كل مرة وألبسه لظهر المقعد ، وعلق الهاندباج في كتف المقعد الآخر . وكان يجلس في بطء . كل هذا وهو لا يدير وجهه المدهوش عنهن . كانت هناك ناتيانا مدرسة الانجليزية الحلوة الضحوك التي كانت كلما رأته مقبلاً تهتف بنبرة انتقاد عذبة ونشطة : « أوه . . مو . . حاميد » لم تهتف كعادتها ولم يبتسم وجهها ككل مرة ، بل بدت شاحبة وصامتة وحزينة . وكانت هناك الكسيانا مدرسة الفرنسية وميرا سلاف والونا والكسندرا وناتاشا وايرينا . . كل مدرسات قسم اللغات بالمعهد كن على طاولة « يلينا بتروفنا » ينظرن إليه بعيون فيها أسى وحزن وطيف مرارة ما ، وبدا مرتبكاً وحاول أن يتكلم أن يسأل ما الخبر ؟ لكنه غمغم وفرك يديه حيرة ثم سمع صوت استاذته واهناً : « محمد . . متى ستسافر ؟ » . « أسافر ؟ ! » .

سأل بدهشة واستغراب فيما كان الصمت سائداً ورأى عبر زجاج النافذة العريضة في آخر الغرفة سحب الربيع المتقلب الفاتحة ترحل . . يسافر ؟ ! « لماذا يا يلينا بتروفنا ؟ » . « لأن كل الأجانب يرحلون عن كييف » . وتحير ماذا يقول . إنه لم يفكر في السفر الآن أبداً . لماذا يسافر ؟ ! لقد سمع أن الطلاب الانجليز والفرنسيين سافروا . استدعتهم سفارات بلادهم وعادوا خوفاً من خطر « الاشعاع » وظل يضحك عندما سمع ذلك . ليس

لأنه يوقن بأن لا خطر هناك . ليس لأنه لا يصدق وجود هذا الاشعاع . بل لمجرد الاحساس بأنه لن يخسر شيئاً على أسوأ الفروض : سيموت بالسرطان بعد ثلاث سنوات ؟ جميل . .

موت مبكر أفضل من شر الأمرين ، شيخوخة آتية مع فقر لا ريب فيه . سيصاب بالعقم ؟ حسنا . . ولمن ينجب أطفالاً ؟ . . للفقر في بلاده التي لا يملك فيها مجرد غرفة على سطح للسكنى ؟ أم للغربة التي لم تعد - في غربها أو شرقها - مهما كانت - تحتمل الغرباء ؟ . موت ؟ هذا جميل . عقم ؟ هذا أجمل . كان يردد ذلك كلما سمع في الاذاعات والاشاعات نبأ عن آخر تطورات الكارثة الخفية ، والرعب الذي لا يبين ، وكان يضحك بضحك لم يصدقه أحد . لكنه لم يقل هذا ولم يضحك وهو يجيب على سؤال أستاذته : « لن أسافر يا ليننا بتروفنا . ولماذا أسافر ؟! » وفتح كفيه أمامه تساؤلاً وحيرة أيكون الخوف قد تسلل إلى هذه القلوب الصبورة أخيراً ؟ أتكون ضوضاء الاذاعات الموجهة قد أتلفت هذه الأعصاب المتهمة بالبرود والتؤدة . أم يكون الخوف قد صار لازماً بيننا هو مثلما وصفه أحد الأصدقاء وهو يتكلم عن أبناء العالم الثالث عموما . . يدرسون العلم ويفهمونه لكنهم لا يحسون حقيقة به . . لا يفرحون به ولا يحزنون ، لأنهم ببساطة لا يعيشون به أو فيه . . حتى لو كانوا يستهلكون بعض تطبيقاته . لكنه رغم ذلك كله لا يستطيع أن يكره نفسه على تصديق مالا يراه . وكان لا يرى أمامه غير عشرة وجوه نسائية تتطلع إليه في غير تصديق أنه لن يسافر . كالآخرين . هل يقول

لهم ضاحكاً بمرارة أنه لن يسافر لأنه من بشرية أخرى غير الانجليز والفرنسيين . . بشرية لا يؤثر فيها ما لا تراه ولا تسمعه ولا تلمسه ولا تذوقه أو تشمه . أم ماذا يقول ؟ . ووجد نفسه يندفع في القول : « لا يوجد شيء مخيف هنا لن أسافر . لا يوجد أي خطر » . وسمع في خفوت صوت تنيانا ، تسأل : « يقينا يا محمد ؟ » . كان قد سمع عن أرتال الباصات والسيارات التي لا تنقطع حركتها على طريق تشرنوبيل . . عن الآلاف الذين يهجرون من دائرة عشرات الكيلومترات من حول المفاعل . عن تلوث المياه وانقطاعها في منتصف الليل . وعن نقلها إلى مصادر المياه الجوفية إذ لم تنقطع . عن خطة لاخلاء المدينة ، وعن خطة أخرى لاخلائها من الأطفال فقط . عن اطفاء الحريق ، وعن استمراره ، وعن انفجار رهيب سيحدث يوم ١١ مايو حيث ينتهي كل شيء وينزل الناس تحت الأرض . لكنه فعلاً لم يحس بخطر ما ولم يجزع من أي شيء سيكون . وود لو يتمدد توا على الطاولة المتسعة أمامه ويتمددن إلى جواره واحدة من بعد أخرى . . ينمهن على ذراعه ووجهه على مقربة من وجوههن ويده الطليقة تربت بطمأنة عليهن . يتصور أن هذا هو أفضل وضع تصدق فيه المرأة رجلاً . وتسربت منه ضحكة إذ تخيل أستاذته بينهن .

وباغتته « ايرينا » العصبية دائماً : « محمد . . لماذا تضحك الآن ؟ » . ووجد نفسه في فورة الشروع في المرح يتورط ، ويجيب بسرعة وتدفق غريبين : « لأنني متأكد أن لا شيء هناك

أنت يا ايرينا » واعجب لذلك . لقد رأيت الأشجار والزهور والطيور وأنا فى طريقى للعادة إلى هنا . كل شىء ربيعى مثلما كان قبل تشرنوبيل يا ايرينا وكانت الوجوه العشرة تلتفت إليه باهتمام شديد . تقترب فيشعر أنه رجل كل هؤلاء النساء اللاتى يلذن بكلماته الآن . وكاد يضحك متذكرا صورة عالمة الأنثروبولوجى الأمريكية التى ذهبت إلى مجاهل أفريقيا تدرس عادات ولغة احدى القبائل البدائية ، فتزوجت من زعيم القبيلة وارتضت أن تكون واحدة من بين نسائه المائة . ووجد نفسه يشرح بحماس فكرته التى نبتت لتوها فى رأسه : « أن النباتات تحس وتعبر والطيور والحيوانات بالطبع كذلك . وبما أن هذه الكائنات لم تفسد فطرتها فهى تحس بأى تغير فى البيئة من حولها حتى قبل أن يرصده الانسان وأجهزته العلمية . يحدث هذا قبل ثوران البراكين وقدوم الزلازل : تكف الطيور عن التغريد وترحل ، وتنطوى الكلاب على نفسها فى الأركان ، وتقفز بعض الأسماك من الماء منتحرة على الشاطىء ، والنباتات . . . ؟

ولم يكن يعرف ماذا تفعل النباتات فى نذر الكوارث ، لكنه اندفع فى لحظة الشعور بثقة غريبة تدفعها إلى كيانه هذه الوجوه التى دنت ترنو إليه . . « والنباتات التى لا تستطيع الرحيل تكتئب . . تهدل أغصانها وتذبل الزهور بسرعة وربما تساقط الأوراق . يحدث هذا لأن هذه الكائنات البكر جميعا تستطيع التقاط أبسط تغير فى فيزيائية أو كيميائية الهواء أو الماء أو التربة من حولها . وبما أن الاشعاع يغير مستوى الطاقة حيثما مر كما يقولون فإنه يغير

فيزيائية الهواء على سبيل المثال وهذا تحسه الزهور والطيور والنباتات على الأقل . وبما أنى لم أر تغييرا طرأ عليها فإنى متأكد أن لا خطر هناك » . ولم يكن متأكدا تماما مما قاله . . .

* *

لم يدهشه أن تكون « ناتاشا » جميلة السهولة وسهلة الجمال هى التى هتفت « صحيح . صحيح . صحيح يا محمد » ، فهى التى سألته مرة عما اذا كان لا يخاف من التماسيح التى تخرج من النيل وتتمشى فى الشوارع ، وعن الشعاع الذى يسقط من قمة هرم خوفو إلى داخل إحدى حجراته ويشفى السرطان والكسور ويعيد الشباب . لكنه اندهش إذ بدا على وجه « يلينا بتروفنا » اهتمام شديد وقد راحت تسأل البنات عما إذا كن لاحظن هذه الأشياء قبل أن يأتين ، وكانت المفاجأة تغيم بالذاكرة لكن « يلينا بتروفنا » نفسها هى التى وثبت من مكانها وأسرعت إلى النافذة . . فتحت النافذة كلها بسرعة ، المصاريع الأربعة بتعاقب ، ومالت على العارضة تتشمم فانحسرت أنفاسهن وأنفاسه . هن من فرط الرغبة فى كامل الاصغاء وهو من شدة التوجس فى أن يتحول طوق النجاة المتخيل الذى صنعه لتوه من أجلهن إلى حجر يغوص بهذه القلوب إلى قرارة اليأس . ماذا لو لم يغرد الآن طائر ؟ أو ذبلت لأى سبب من الأسباب شجرة ؟ ماذا يكون قد صنع بهن ؟ وقد كانت « يلينا بتروفنا » تميل ناسية نفسها تماما فى رغبة الإصغاء . . تبدو كعقعقة كبيرة فى هذا

الأنحناء والانثناء وإمالة رأسها تصغى وترنو إلى أسفل وعبر الشارع الخالى حيث يصعد فى الرصيف المقابل سور مقبرة ضحايا الحرب العالمية الأخيرة . . سور طوبى اللون ضارب إلى حمرة مطفأة يظاهره سياج من أشجار الحور السامقة . كانت تظهر من بين جذوعها السوداء فى الشتاء أرض المقبرة يغطيها الثلج وتنتأ فيها بلاطات المقابر مغطاة بالثلج هى الأخرى ومحوطة بأسيجة من شجيرات عشبية ، بينما أشجار البتولا والتنوب والكستناء والقيقب العارية جميعا تتوزع وفيرة فى كل جنايا المقبرة . كان لا يحب الإطلال عليها ، فلم يرها منذ الشتاء ، ولابد أن كل شىء فيها قد اخضر الآن حيث تنتظر « بليتا بتروفنا » وتصغى ، وتنتظر والبنات ينتظرن . وهو أيضاً ، بقلب واجف ، ينتظر .

* *

بانت شقشقة عصافير بعيدة ، ثم أتى واضحاً أوضح ما يكون تغريد بلبل ، وصدح فى نفس الوقت طائر ما . وهدلت حمامة . وخَزَّ جنون الغرفة .

* *

كم قبلة على الخد تلقاها ، وعلى رأسه ، وعلى الكتفين إذ بدا مستحيلاً أن ينهض من جلسته وهن يتكالبن فرحات عليه . وكم لقباً نال ؟! « دراجوى موخاميد » . « زالاتوى موخاميد » .

« موى موخاميد » . يا الغالى محمد . يامحمد الذهب . يامحمدى أنا . العصافير تشقشق . والبلابل . وهديل الحمام أيضا . . وحتى العقبان . كلها مازالت تغنى يامحمد ، ومحمد الذى رشقته سهام كل هذا الفرح ، راح ينزف تأثراً فى أعقاب انطلاقهن من الغرفة وذهاب « بليتا بتروفنا » معهن ، كان موقنا أنهن سينتشرن الآن فى كل أرجاء المعهد ويعممن أن الطيور مازالت فى « كيف » تغرد ، ولا إشعاع يخيف . . لاسرطان مبكر ولاعقم ولاجنون ولاصغار يشيخون فى عمر الزهور . أى حكاية هذه يامحمد ؟

ونهض من مكانه فى الغرفة الخالية تقوده انقيادة أسى رهيف إلى براح النافذة المفتوحة . . هذا هو السور الطوبى المائل إلى الحمرة وهاهى ذى الأشجار تكاثفت خضرتها الربيعية حتى غطت تماما ما تحتها فكأن هذه حديقة وليست مقبرة . وأصغى إلى شقشقة العصافير وتغريد الطيور التى يعرف والتى يجهل . . ثم مد البصر بعيدا يطوف بذرى « كيف » . . أشجار أشجار أشجار ، والبيوت بالكاد تبرز بيضاء من بين خضرة الأشجار . ترجع فى داخله قول الرسام الأمريكى « روسكويل كنت » بعد ما رأى كيف : « يا إلهى لقد رأيت حدائق كثيرة فى المدن . لكن هذه أول مرة أرى فيها مدينة فى حديقة » . وشعر بخوف داهل أن يكون الخوف من هذا الشعاع الخفى حقيقياً . أن تكون كل هذه الحديقة فى طور الاحتضار البطىء الآن أو فى انتظار الموت يوم ١١ مايو . تتدهور الأمور وتحدث الانفجار الذرى وينتهى كل شىء . . شوارع الشجر ، أزقة الشجر ، مشاور الشجر ،

والشرفات المعطاة بأوراق عنب البيوت . صفاف الخضرة والتفاح والكريز على جانبي « الدنبير » . وقباب « اللافرا » الذهبية التي تبرق في رب الاخضرار . الحمام الذي يغطي طرقات حديقة ميدان « الفولاسفا » . ونوافير المياه المضاءة بالألوان التي ترقص رقص الضوء مع الموسيقى في ميدان « الاكتير سكايا » . لأمهات الشابات اللاتي يدفعن عربات صغارهن المطاطين في الظلال . والعواجيز الذين يلعبون الشطرنج على مقاعد جذوع الأشجار في حدائق « شابشكا » . العشاق المتحاضرون في دروب الليلك العطرة والأطفال . . آه . هؤلاء الأطفال . الذين أبصرهم مرارا يتراكضون مرحى في مماشي الغابات الأمنة والحدائق . . يتوقف الواحد منهم فجأة إذ تلفت نظره وردة جميلة . فينادي أصحابه ويتوقف اللعب . يلتمون جميعا حول الوردة ويميلون عليها مشبكين بأيديهم الصغيرة خلف ظهورهم . يشمون رحيق الوردة ، دون أن يلمسوها . فقط : يتبادلون ويلوحون للوردة هاتفين : « مالادييتس » . وهي تعني « أحسنت » . وبلغة الأطفال . آه . هؤلاء الأطفال تعني « شاطرة . ياوردة » .

ختان بروسلى

لم يظهر متوانياً فى ركضه بين البيوت مع مطلع الصبح ككل الأيام الماضيات . لم تسمع صيحته المضحكة « هاى هو » يبادر بها كل من يلقاه مع قفزة (كاراتيه) فى الهواء على سبيل التحية . لم يهوهو لكلب نائم فى بئر سلم يوقظه . ولم ينونو لتحيد قطة عن طريقه السريع . ولم يسبقه دبيبه وغناؤه وصخبة على درج البيوت التى يدخلها دون حاجة لإذن . لكنه راح يتبدى فى نفس الأماكن عبر النور الرمادى المزرق للصباح الباكر ، ساكناً على غير العادة وخائفاً من شىء ما لم يكن معروفاً بعد . ثم .. هذا الزى الغريب عنه : جلباب من الدبلان الأبيض وحذاء (بلاستويل) ناشف مربوط بدوبارة ! أين أقدامه السريعة الحافية المتربة ، والشورت الأزرق المبقع وفانلة الألعاب الصفراء القديمة التى

أبيضت ؟ ملابس عمله الصباحى السريع وهو يطير كالنحلة بين البيوت .. يظهر ويختفى ويظهر ويختفى ولا يكف عن الركض أثناء ذلك .. من البيوت إلى (طابونه) الخبز إلى البيوت إلى طابونة الخبز من جديد ومن جديد البيوت ثم دكاكين البقالة فالبيوت فعربة الفول المدمس - البيوت - سوق الخضار القريب - البيوت - محل الطعمجى - البيوت . مشاوير عديدة خاطفة يلبيها وهو يلعب لعب (الكاراتيه) هذا الذى ألصق به اسم لاعبة « بروسلى » وكتاد أن ينسى الناس اسمه الحقيقى فصار « اسماعيل بروسلى » . أو « بروسلى » فقط . أو « المخفى بروسلى » - ضحكاً منه وصفة له إذ عادتما يظهر فجأة فى مطابخ وردهات وصالات البيوت وشقق العمارتين الكبيرتين فى الحى .

يعلن عن وجوده عنه الطفولى فى شىء ما من (أبليكات) هذه الأماكن أو صوته ينادى سيدة البيت « عايزه حاجة بسرعة أصل مستعجل » هكذا ببساطة مضحكة تنقلب غالباً فيها العين إلى حاء والزاى إلى سين والجيم إلى كاف وهو على العموم ما زال ينطق حرف الراء لام « حابه حاكه بسُلعه أصل مستحجل » . ويضحكن عندما تقع أنظارهن عليه إذ أن ملامحه لطيفة رغم الغبرة .. تقول احداهن ضاحكة « انت جيت يا منيل » فيرد : « بس ما تقوليس يا منيل احسن والله اسعل معاكى وما عتس أكلمك .. وتفاجأ به أخرى أو تبدو كمن فوجئت به تقول : « يوه « بسم الله الرحمن الرحيم ، انت طلعت لنا منين ياوله » . فيكون رده : « ح السلام يا أختى يخى مس خالقه واللا مس

خالقه ... وهو يمط حروفه مطاً مضحكاً ثم يرسله فى مشاوير الصبح يلبيها ويضع فى جيوبه القروش وبين يديه شيئاً مما اشتراه : رغيفين ، قرص طعميه ، بيضه ، حبة طماطم . يتمنع لحظة ثم يقبل ويطير ... يحط بين يدى أمه وأبيه الضرير وأخواته البنات الأربع ، فى الغرفة المجاورة للسلم ببدروم منزل « حسين صبل » ، ويعاود الطيران ، كأنه لم يخلق ليهدأ لحظة . لهذا سرعان ما اكتشفت السيدات فى هذا الصباح سكونه ، ثم اكتشفن زينه الضحك والذى كان مضحكاً لأنهن لم يتصورن « بروسلى » فى شكل آخر وانتشر النبأ . بعد التقصى ، بين الشرفات والنوافذ الصباحية المفتوحة والمتقابلة :

« الواد هايطاهر النهاردة يا عيني » ، « الحاج صلى عاملها صدقة عن ولاد ولاده » ، « بعدما المزين يطاهر عيال صلى هايتزل يطاهره على حساب الحاج » ، « فوق البيعة يا عيني » ، ويا عيني ، بضحك ، وتأثر ، ونوبة صعود لشفقة راحت تنهال منها على « بروسل » العطايا : دجاجة مجمدة لتطبخها له أمه حتى يتقوى بعد الختان . وعلبة بسكويت راح يتأمل رسومها بانبساط مترددد . وكيس فاكهة . وشاش وقطن ومركركروم من اجزاخانات البيوت . ونقود ورقية حشت بها السيدات جيب جلبابه الصغير الذى ركبته الخياطة معوجاً . وكان « بروسل » من كل هذا ومما سيحدث له بعد ساعة أو ساعتين فى استغراب ، ودهشة ، وترقب وجل . . يمضى دون أن يتراكض متواثبا تواثب « بروسل » ، دون أن يتصايح مثله ، ودون أن يطير .

●

مدّ « سعد الاسكافى » اللمبة بالسلك من دكانه وأدلاها من نافذة البدروم القريبة من الأرض ووضع الفيشة فأضاءت . لكنه لم يتمكن من رؤية ضوئها إذ فاجأته المرأة « الناشفة » ـ كما جاء فى لازمة سبابه لها فيما بعد ـ أم « بروسل » بالوقوف فى وجهه مانعة إياه من الدخول للمعاونة فى الامساك بالولد عند الختان . وضعت ذراعيها الجافتين فى حلق الباب ووقفت بطولها الناحل اليابس تمنع برجاء وحسم أى أحد من الدخول غير « وته » المزين ، وأخرجت البنات إلى الشارع . وقالت إن الولد

سيمسكه أبوه وتقوم هى بالمناولة مع الاسطى « وته » . ولم يثنها أبداً زعيق سعد الاسكافى وهو يضرب كفاً بكف لاماً حوله الناس متعجباً لجنون المرأة ومردداً : « خيراً تعمل شراً تلقى » . واتفق الذين التموا على أثر زعيقه معه فى الرأى حول جنون المرأة . فأبو الولد ضرير ومقعد منذ سنوات كما يعرف الجميع وربما ينفلت الولد منه . وهو ـ سعد الاسكافى ـ لم يكن يريد إلا المساعدة لوجه الله . وأوشك أن ينزع الفيشه ويسحب اللمبة والسلك لولا أن أثناه الناس واتفقوا معه أن « يعمل الخير ويرميه فى البحر » وأن « الجزاء عند الله » . لكن هذا لم يمنع الجمهرة الصغيرة من التبدد ، بل راحت تزداد مكتسبة فضوليين جدداً . . أصحاب الدكاكين المجاورة ونساء البدرومات الأخرى القريبة وبعض الأطفال . . وقفوا فى ترقب ينتظرون ما يسفر عنه ختان ولد سيمسك به أب ضرير مريض ، وتحضره ـ وحدها ـ أم مجنونة .

●

فى التنور بدت حيطان حجرة البدروم القريبة من السلم كثيبة . تسوّدها آثار أياد كانت تساند عليها وتتلمسها فى العتمة وكانت هناك بقع من العفن الداكن تنتشر بطول الحيطان وعرضها . وفى الركن تكومت اشياء بدا أنها من لوازم جهاز البنات . أشارت إليها المرأة قائلة للمزين : « البركة فى اسماعيل يا عم وته » . وشعر « وته » المزين بإنقباض ، بل بوجل يداخل

نفسه بنفسه كما لم يحدث له خلال ثلاثين سنة ختن فيها الآلاف من البشر . ومع ذلك استمر فى اعطاء أوامره بالتجهيز للختان .. أمر المرأة بأن تعطى (وابور الجاز) نفساً يشدد من نيرانه حتى يغلى الماء فوقه أسرع لتطهير العدة قبل وبعد استخدامها ، وتأكد من متانة الكرسى الذى سيجلس عليه الرجل الضرير والولد .

وأخذ يداعب الولد ويطمئنه ، وكان يرتل بلا انقطاع وعبر حديثه سورة الفلق . وكانت المرأة تتحرك بلا انقطاع فى الغرفة الضيقة دون أن يبدو هناك أى داع حقيقى لحركتها ، ودون أن يكون هناك ما تفعله . وكان الرجل الضرير واقفاً يضم الولد إلى جنبه ماسحا بيده الضريرة على رأسه ومردداً : « ما تخافش يا اسماعين دى حاجه بسيطة خالص ، بسيطه خالص يابابا » . وكان اسماعيل مبهوتا وشاحبا حتى بدت عيناه السوداوان أكثر لمعاناً ودكنة . ثم ركن المزين المقعد جيداً إلى الجدار وراح يُجلس الرجل الضرير معدلاً من جلسته لتتلاءم مع مجىء الولد فى حجره . وارتفع الولد ثم أحاطت به الأذرع الضريرة تفتحه مهيأة فى وضع المسك جيداً كما شكلها المزين ، وبدأ الولد يصرخ صراخا غطى على زعقة المزين إذ رفع جلباب الولد يكشفه : « إيه ده ؟ ! » . وهرولت الأم سائلة بلا صوت ، مبهوتة كمن تلقى نبأ ظل يخفيه طويلا . وأجابها المزين : « الواد دا مش عيّل يا ام اسماعين » . وعاجلته المرأة تسكته بتوسل رافعة يمناها فى مواجهة فمه : « حلفتك بالله ما تجيب سيره . يقطعوا رجله ياعم وته وما يدخلوهش لا هنا ولا هنا » . « لكن دا مش صغير

يا ام اسماعين » . « والنبى ما هو دارى بنفسه يابا . والنبى ما هو دارى بنفسه . أحب على رجلك ما تجيب سيره لحد يا حاج وته » ، وهوت المرأة على قدمى المزين تقبلها ، فتراجع متمتماً : « استغفر الله العظيم . استغفر ليه العظيم » . وكان صراخ « بروسلى » يتصاعد مطعّماً بسبابه المضحك وكان يشرق بصرخاته ، وبين الصرخات يبين طنين وابور الجاز ، وضحك له الناس فى الخارج .

دم الغزال

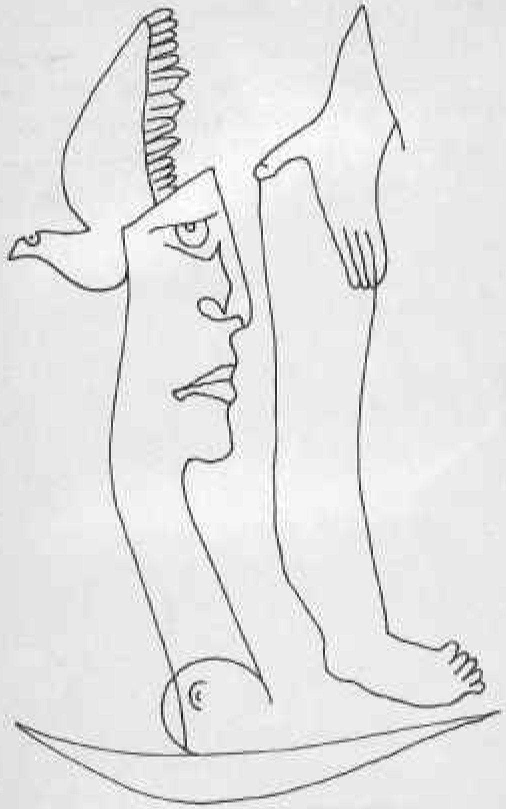

من الوادى العطشان إلى الوادى الريان ومن الوادى الريان يدفعها إلى الوادى العطشان وتستمر المطاردة حتى تتعب فتوقف لاهثة خائفة ترتعش وتتوقف بقربها .. « اللاندروفر » ويهبط زميله السائق ليأتى بها من قرنيها طيِّعة إلى العربة ، دون أن يطلق عليها النار ، دون أن يشعر بتلوثه مزيدا إذ تتلوث يداه بالدم وهو يوازن ما بين طاعة الأمر ومخالفة ضميره ، مخالفة حقيقية دوره . تلك كانت خطة إبراهيم لصيد الغزالة المطلوبة ، يفكر بها وهو يصعد صاغراً بسلاحه إلى مقدمة العربة . ثم أمر إبراهيم زميله أن ينحرف فى انطلاقه حتى يبلغ طرف العطشان ومن هناك يكون الدوران حول الريان إلى حيث تكثر الغزلان فى المحمية .
« المحمية » ! رددها ابراهيم فى داخله ممزوجة بمرارة السخرية من

فرط فجاجة المفارقة وافتضاحها : حماة المحمية يخونونها ، وماذا يكون الأمر غير ذلك ؟ أليس واحداً من جنود السرية المنوط بها حراسة هذه المنطقة المعلن عنها كمحمية طبيعية ؟ أليس دورهم المحدد أن يمنعوا أى يد تحاول الإمتداد إلى هذه البقعة لصيد واحد من حيواناتها المهددة بالانقراض ، وعلى وجه التحديد : الغزلان ؟ الغزلان التى هو ذاهب لصيد واحد منها بالأمر المباشر من قائده ! ولأجل خاطر الشواء المشتهى على مائدة قائد القائد ! وزفر إبراهيم زفرة كان مقدراً لها أن تطول لكنه شهق سريعاً مع هذا الشعور الفاجىء بالهبوط .. كانت « اللاندروفر » قد اجتازت حافة الوادى العطشان القاحلة المرتفعة وراحت تهبط فى منخفض الوادى الريان عند سفوح التلال والجبال الصغيرة . وأمر ابراهيم زميله أن يطفىء .. أن يخفض من صوت المحرك ، ليتسللا فى شبه صمت إلى قلب الريان .

●

السيل يداهم الوادى من النقطة نفسها التى تسللت عبرها « اللاندروفر » .. من بين ضفتى تلال الأردواز الرمادية والبركانيات الصخرية الكريمية الناصعة . تموج بسيرة السيل هذه الحجارة الوردية والحصى الذى يفترش الدرب المعشب وينتشر فى الوادى . ذكرى الاندفاع الكاسح لماء الأمطار المنهمرة على جبال الجرانيت العالية فى الجنوب ، تأتى دافعة أمامها بشجيرات الشوك المقتلعة من الرمال ، ونباتات الصبار ،

والعشب الصحراوى .. تأتى مدجّجة بفتات الصخور الوردية القاطعة التى تساقطت من قمم الجبال وحوافها المتخلخلة . نهر مجتاح يندفع ليدخل الوادى فتهرب من نُذُره الفئران حاملة صغارها إلى قمم الجبال والتلال المحيطة ، وتهجر الطيور أعشاشها ، وتفر الأرانب الجبلية والثعالب والذئاب ، وتطلق الغزلان أمامه سيقانها للريح . صورة مماثلة لصورة الأثر الذى أحدثه اندفاع « اللاندروفر » فى بطن الوادى . لكن السيل يفعل ذلك ولا يلبث حتى يشف عن صورة أخرى .. يتلاشى ..

تتشرّبه السفوح وترتوى فتخرج من بين جنباتها الخضرة . يصير الوادى « ريان » إذا ما قورن بالوادى المرتفع المجاور له والذى يظل « عطشان » لاتصعد إليه ، وتجافيه ، المياه . تدب الحياة فى أعطاف الريان بعد الفزع .. تأتى الأرانب والغزلان التى تغتذى على العشب ، ثم تأتى الثعالب والذئاب التى تغتذى على الأرانب والغزلان . وفى أعقابها تأتى الضباع التى تتنبذ الأركان فى انتظار نفايات الولائم البريّة .. تحط أسراب الطيور المهاجرة قليلاً للراحة ، ويعشش حمام القطاق تجاويف الصخور . وفى لحظات الشبع الحيوانى ، يبدو الريان واحة تسكنها سلسلة من الكائنات الأليفة المتوادة . تهجع بقرب بعضها البعض . ترعى أو تتمطى أو تغفو فى سكينة . الصورة التى وخزت قلب ابراهيم لحظة اخترقت « اللاندروفر » قلب الوادى . كان كل شىء هادئاً ووديعاً ومتناغماً بسحر لوحة حية . ثم دب الروع فى هدوء هذا السحر مع ظهور السيارة . وراح الارتياع يفشى « اللاندروفر »

تضاعف من سرعتها لتطارد غزالة شاردة . أربكت المباغتة الغزالة فارتكبت أول أخطائها . . جنحت للخروج من الريان بدلاً من أن تلوذ به . ضيعت أسنح فرصها للدخول فى خور صخرى تقف امامه اللاندروفر كقطعة عاجزة من حديد .

وأسلمت مصيرها لجفاء العطشان . وفى دروب العطشان الممهدة بلا عوائق من نبت أو فتات صخور ، وفى سفوح الكثبان المنسرحة لم يعد للغزالة إلا أن تجرى أمام وحش الحديد . لكنها لم تكن تجرى . لقد كانت تطير . بدت لابراهيم فى ركضها الغريب امامه وكأنها صورة حلمية . أو عرضاً بطيئاً لفيلم بالغ النعومة عن غزالة تسبح فى الهواء القريب من سطح رمال حريرية متماوجة . تماوجاً بكراً لم تطأه من قبل عجلات أو قدم . لكن أطراف قوائم الغزالة كانت تطؤه الآن . بل تغمزه غمزاً خاطفاً برشاقة أطراف أربع قوائم غزلانية ، تتضام فى نقطة واحدة يتقوس أعلاها جسم الغزالة . قوساً ساحر المرونة ، مشدوداً ، كأنما يصوب نحو السماء . غمزة ، وينطلق القوس سهمه الغير مرئى . بل ينطلق القوس نفسه . . ينفتح جسم الغزالة طائراً فى الهواء ، إلى الأمام ، إلى الأمام ، إلى الأمام . الى الأمام فى انفساح الوادى الرملى وعبر المنعطفات بين التلال . و « اللاندروفر » فى أعقاب الغزالة تجمح وتجأر . يضاعف السائق من سرعتها بشكل تلقائى فى البداية . لكن المطاردة توقِّر شيئاً ما فى دم إبراهيم . يحس بالسخونة تتصاعد فى عروقه ، سخونة مغلول ، ويحس شيئا وكأن الغزالة تلطمه كلما انفتح جسمها

طائراً فى الأمام . تلطمه بطرق قائمتيها المطوحتين إلى الخلف فى انطلاقها . وتتعاقب على نفسه الُهانة مناظر لحظة سماعة للأمر ، ولحظة تردده فى مراجعته كما ينبغى ، ولحظة الصدوع والتنكيس . وتصير المطاردة جنوناً يصعد فى داخل ابراهيم . وابراهيم ينتصب هذا الجنون واقفاً فى مقدمة « اللاندروفر » يصرخ فى السائق بالاسراع والانعطاف والمناورة . وتضيق المسافة بين الغزالة وابراهيم . تضيق حتى تصفع الرمال التى تقذفها اقدام الغزالة وجهه . تضرب جفونه الطارفة وتدخل فى خياشيمه وفمه ويحس بجرشها بين أسنانه وهو يصرخ فى السائق . ثم يصرخ من شدة الضيق . ويقرر أن يطلق عليها طلقة واحدة . طلقة لا تقتلها لكن تصيب ساقاً من سيقانها بالارتباك لتتوقف . ليمسك بها وينظر فى عينيها وهى مغلوبة وأسيرة . كم كان يشتهى هذه النظرة . وكم كان دافعه إليها غامضاً وغالباً . . ولا يُقاوم ، وراحت يداه تتشنجان وهو ينصب « السيبيا » المثلثة على غطاء المحرك ، وعلى قمة « السيبيا » يثبت الرشاش .

●

طلقة ، وطاشت . طلقة ، أصابت ، لكن لم يبد لها من أثر . . مجرد اهتزازة عابرة ، خفيفة ، فى مسار الركض الطليق السابح ، ثم عاد التجانس للمسار . حتى الدم لم ينبثق من موضع الاصابة . واشتعلت الحرب . طلقة أخرى تصيب . دفعة صغيرة من الطلقات . زخات زخات زخات . والهدف

بقعة صغيرة واحدة مساحتها سنتيمترات قليلة من ساق الغزالة اليمنى التى يطلق عليها ابراهيم . على الركبة يطلق فى جنون وهو يصرخ فى السائق أن يطير .. يحيد .. يندفع .. ينعطف .. ويطلق .. يطلق .. يطلق .. تفر التلال بأشكالها الغامضة التى نحتتها رياح السنين . تطوى الكثبان . وتمضى مسرعة تماوجات بحر الرمال . ثم ينفصل هذا الجزء من ساق الغزالة فيصرخ ابراهيم . صرخة الغريق المغلول الذى لاحت له قشة وما لبث حتى غرقت هذه القشة . ارتبك ركض الغزالة برهة ثم استعادت نفسها . صارت القائمة الخلفية الوحيدة تعمل عمل الاثنين . لا فارق يكاد يُذكر إلا أن الركض تحور قليلاً مساره . صار قوساً . وفى انحناء القوس كانت « اللاندروفر » تميل . إلى حد الخطر الذى سلم فيه ابراهيم بفكرة اصابة الغزالة ، سريعاً ، فى مقتل . وفى اللحظة القاطعة ، قطعت الغزالة قوس ركضها بانعطافة حادة . ودخلت فى فوهة أقرب كهف صادفها .

●

بدا لابراهيم ألا يتعجل بعد أن توقفت « اللاندروفر » ، وتوقف هذا التراكض المحموم فى داخله ، وتوقفت الغزالة فى فوهة الكهف . بدا له أنها حُشرت فى الفوهة لاتستطيع التقدم ولا تستطيع الرجوع . وسيهبط ويجذبها مع زميله السائق من الخلف . من الساق الوحيدة الباقية . وسينظر فى عينيها ملياً قبل رفعها إلى ظهر العربة . ونزل ابراهيم مع السائق . مشيا

خطوات فى الرمل المُعيق وتوائبا بين صخور السفح . ثم توقف ابراهيم ينظر إلى هذا الجزء المرتعش الباقى من الساق المبتورة عند الركبة . تعجب كيف أنه لم ينزف وكان الطلقات الملتهبة حينما كانت تقطع تكوى . أى حجم من الألم . ومد يده فأحس بأول النعومة فى الوبر الغزلانى بأعلى الساق السليمة ، وأحس ببلل العرق . وأوغل ليمُسك لكنه قفز مرعوباً إلى الخلف وقفز زميله السائق . سمعا صوتاً لاشك فيه لسعار ذئاب تختفى داخل الكهف الذى لاذت به الغزالة . وكان واضحاً أنها لم تُحشر فى الفوهة . ولابد أنها رأت منذ اللحظة الأولى وميض العيون الذئبية فى العتمة . وقد تكون لبثت بياض الأنياب وهى تكشر . كان ثمة إمكانية لديها للتراجع . لكنها لم تتراجع خارجة بظهرها من الكهف .

واستعر السعار فيما كان إبراهيم والسائق واقفين على مبعدة والسلاح متأهب للإطلاق إذ برزت من الكهف الذئاب . لكن الذئاب لم تبرز . فقط .. كان هذا الجزء الظاهر من جسد الغزالة فى فوهة الكهف يتشد وينتفض ، يسكن مرتعشا ثم ينتفض ، تبعاً لتأجج السعار أو خفوته . ثم راح الدم يخرج من أرضية الكهف . من بين أقدام الغزالة الثلاث الباقية ، خالص الحمرة ، وينحدر فى تيار سريع دافق على حافة فوهة الكهف الصخرية .

الفهرس

١ - القرار ٥
٢ - أمام بوابات القمح ١٧
٣ - حيث الناس والبيوت ٢٩
٤ - المخالسة ٣٩
٥ - ما بال هذا الأنين ٤٧
٦ - هذه المزرعة ٥٣
٧ - البلاد البعيدة ٦١
٨ - الأسوار ٧٩
٩ - الحرب ٨٩
١٠ - الموت يضحك ١٠٥
١١ - سائقة «ترولل» ١١٧
١٢ - هل هي آخر تحية للورد ؟ ١٢٣
١٣ - خان بروسل ١٣٧
١٤ - دم الغزال ١٤٧

رقم الإيداع بدار الكتب ١٨٧٢/٨٨